كَيْفَ تُصبِحُ عارِفاً ؟

رحلة في آفاق العرفان العملي
للشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي

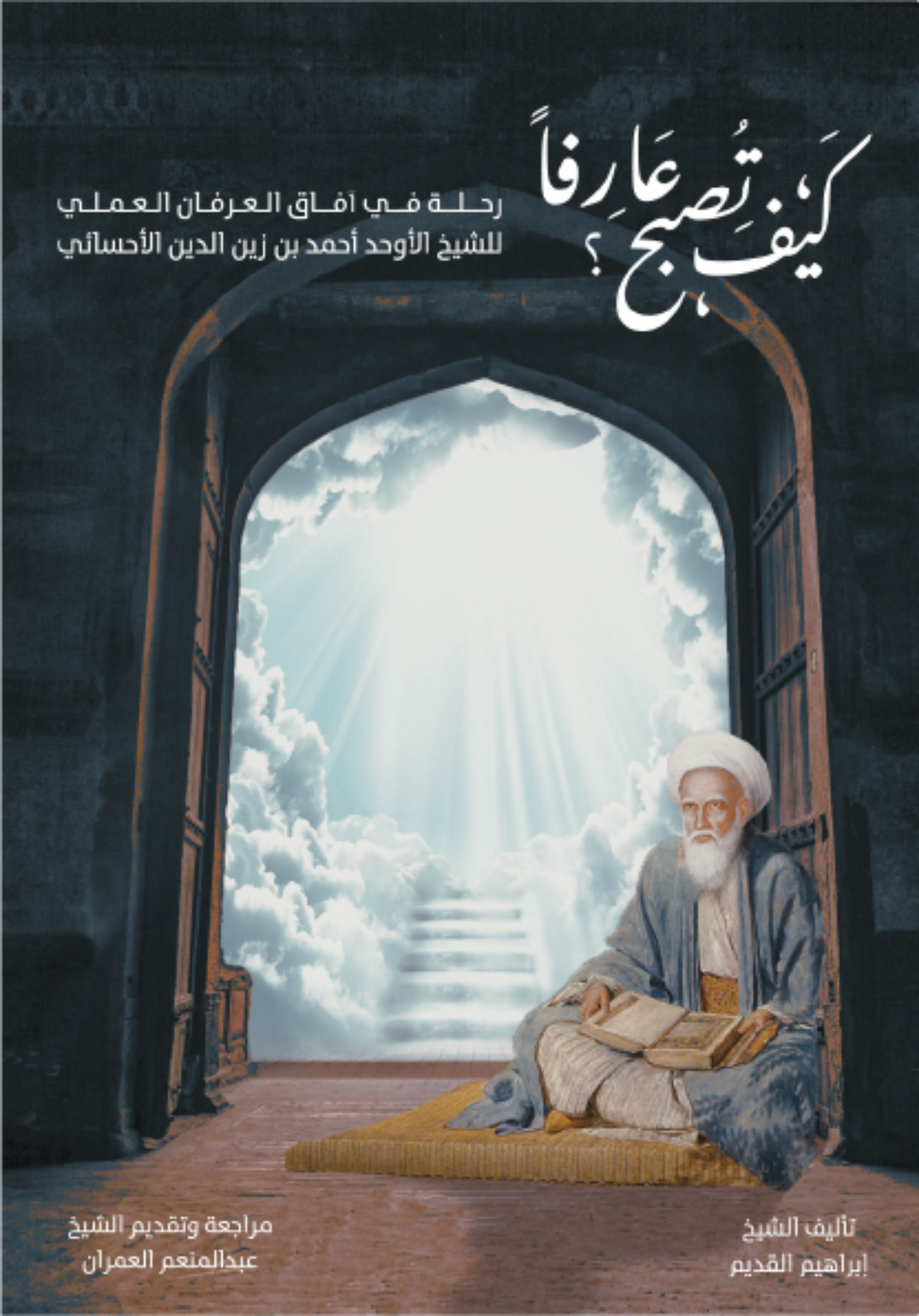

تأليف الشيخ
إبراهيم القديم

مراجعة وتقديم الشيخ
عبدالمنعم العمران

كيف تصبح عارفاً؟

رحلة في آفاق العرفان العملي

للشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ

الكتاب: كيف تصبح عارفاً؟

المؤلف: الشيخ إبراهيم القديم

المراجع والمقدم: الشيخ عبدالمنعم العمران

تصميم الغلاف: سيد هيثم يوسف

الناشر: لجنة السيد الأمجد ـ الكويت

كيف تصبح عارفاً؟

رحلة في آفاق العرفان العملي

للشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي

تأليف

الشيخ إبراهيم القديم

مراجعة وتقديم

الشيخ عبدالمنعم العمران

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إهداء عام

إلى قلوب الأتقياء الأتقياء المعتصمين بالله وأهل بيته أولاً

إلى قلوب المحبين المتمسكين بنهج الشيخ الأوحد

أهدي هذا الكتاب

إهداء خاص

إلى مَن أمدني بفيض اهتمامه ورعايته

إلى الغيث الذي يسقي فؤادي بمدد إرشاده

إلى أستاذي سماحة الشيخ عبدالمنعم العمران الأحسائي

أهدي هذا الكتاب

مقدمة الشيخ

عبد المنعم العمران

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد.. تتسارع الأحداث، ويسير الزمان بسرعة عجيبة، ولا يزال الإنسان يبحث عن الكمال الحقيقي؛ لأنه يمثل طموحه، وغايته المنشودة، وسعادته الدائمة، إلا أن هذا لا يكون إلا بمعرفة طريقه الموصل له، والأسس التي تساهم في طي المسافة في أقل وقت ممكن، وببذل أقل الجهود.

ولقد تميز الإنسان عن كثير من الخلق بمواهب جمة، جعلته سيداً عليها، ومسخراً لها، والرقم الصعب بينها، ويمكن أن يقال بأن عقله من أهم الأشياء التي تميزه؛ إذ به يحلق في سماء المعرفة عالياً، وبفكره يسمو عن غيره، وبه يميز بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ.

وبما أنَّ العقل له حدود تقيده، وعوامل تؤثر فيه، فقد يقف عاجزاً أمام ما يعرض له من مسائل علمية، ومتحيراً في اتخاذ المواقف العملية المناسبة، بل قد يقع في خلاف ما يريد، فكم من طالب للكمال أخطأ الهدف، وسلك طريق النقص والجهل، وكم من شخص أراد أن يحسن الأعمال فوقع في فاسدها.

وإذا سرح الإنسان بريد فكره ـ في حال البشر ـ يجد مدى التفاوت الشديد في الاهتمام بالعلم والعمل، بل التفاوت في الواحد منهما، فبعضهم تمسك بعلم مادي ـ مثلاً ـ وأهمل غيره، وآخر التصق بعمل وترك آخر، وبشكل عام هذا التفاوت مختلف ومتنوع بصورة ملفتة.

وهذا التفاوت أوجد خللاً واضحاً في الإنسان، وفي محيطه، فقد تجلى ذلك على الصعيد الروحي والمادي له، وعلى المستوى الفردي والاجتماعي. ولم ينحصر الخلل في ذلك فقط، بل انعكس على بيئته، فلم يسلم من ذلك الحيوان والنبات والجماد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

(١) سورة الروم: ٤١.

والتأمل في هذه القضية الحساسة يدعو العاقل ـ وبكل تأكيد ـ إلى الجنوح إلى ما ينجيه من كل ذلك، ويوصله إلى ساحل النجاة، وهذا لا يكون إلا بالتمسك بالعروة الوثقى، والتي هي ـ في الحقيقة ـ عبارة عن التمسك بخليفة الله تعالى في الأرض والسماء، وهو الرسول الأعظم وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فقد قال الرسول الأعظم ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي. وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض كهاتين ـ وضم بين سبابتيه ـ.

فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري، فقال: يا رسول الله، ومن عترتك؟.

قال: علي، والحسن، والحسين، والأئمة من ولد الحسين إلى يوم القيامة»[1].

لأنَّ الله تعالى أودع فيهم ـ صلوات الله عليهم ـ أسرار هذا الوجود، وما يُصلح عباده، وما يُفسدهم، ويحط من مكانتهم، وما فيه سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة. وهم ـ صلوات الله عليهم ـ علموهم ذلك، وأوضحوا لهم سبيل السلامة.

---

(١) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق: ص ٩١ ب/ معنى الثقلين والعترة ح٥.

وإذا سبر طالب الكمال القرآن الكريم وأحاديثهم الشريفة يجد التأكيد على أمرين مهمين، وهما: العلم، والعمل. وسيتضح له بأن الكمال الحقيقي لا يتحقق إلا بهما، ولا يستقيم ولا يستقر أمر الفرد والمجتمع والحيوان والنبات والجماد إلا بهما. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «خلقَ الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت أوائل جواهر عللها. وإذا اعتدل مزاجها، وفارقت الأضداد، فقد شارك بها السبع الشداد»[2].

ونتيجة لهذه التأكيدات ـ من الشرع المقدس ـ على العلم والعمل، قد استشعر المؤمنون ـ وعلى مختلف طبقاتهم ـ هذه الأهمية القصوى، وتدارسوها جيلاً بعد جيل، ولكنهم اختلفوا في درجة الاهتمام، وفي

(١) سورة الكهف: ١٠٣- ١٠٨.

(٢) عيون الحكم والمواعظ ـ الواسطي: ص٣٠٤ ب/ ١٤ حرف الصاد، ف اللفظ المطلق.

نوعيته، فتباينوا في النتائج؛ لاختلافهم في القواعد والمباني، مما ساهم في إفراز مدارس متنوعة، وبروز مذاهب فكرية وسلوكية متباينة، فمنهم الحكيم، ومنهم الصوفي، ومنهم الفيلسوف، ومنهم الإشراقي، ومنهم غير ذلك.

والسبب في هذا التعدد، والعامل الخفي خلف هذا التباين، هو مدى التمسك بالقرآن الكريم وأحاديثهم عليهم السلام الشريفة والعقل المستنير بهما، ومستوى الابتعاد عنهما في الجانبين العلمي والعملي، ولذلك يقول الملا صدرا الشيرازي ـ أعلى الله مقامه ـ: (تباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة)[1].

وفي القرن الثالث عشر الهجري حصل تحول كبير على مستوى الفكر الإنساني بشكل عام، وفي الفكر الاثني عشري بشكل خاص، وذلك بسبب بزوغ شمس مدرسة فكرية جديدة في سماء عالم العلم والعمل، على يد عالم مجدد كبير، وهو الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ (١١٦٦هـ- ١٢٤١هـ).

وهي مدرسة تهتم بالكمال للموجودات بشكل عام، وبكمال الإنسان بشكل خاص، وبما أنَّه لا يتحقق إلا بالبعدين ـ العلمي

(١) الحكمة المتعالية ـ الشيرازي: ج٨ ص٣٠٣.

والعملي ـ فقد أولتهما الغاية القصوى، واهتمت بهما اهتماماً كبيراً. كما أنَّها أكدت على ضرورة ارتباطهما، وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر؛ (لأنَّ العلم لا يثبت ولا يتحقّق ولا يُقبل إلّا بالعمل بمقتضاه، كما أنَّ العمل بغير علم لا ينفع)[١].

(واعلم ـ يقيناً ثابتاً جازماً ـ إنك لن تنال رتبة العلوم ولن تذوق حلاوة الحكم والأسرار إلا بطول التفكر والنظر، ومحض العمل، وكثرة العبادة. فإنها من غير التفكر لا تفتح أبواب الحكمة وأسرار حقيقة المعرفة. والتفكر بدون العبادة لا يوصل إلى الحق، بل يؤدي إلى مكائد الشيطان، ودعوة النفس الأمارة بالسوء)[٢].

ثم إنَّ الشيخ الأوحد الأحسائي ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ استعمل لكل واحد منهما أكثر من اسم، فالبعد العلمي ـ مثلاً ـ أطلق عليه: العرفان النظري، والحكمة النظرية، والحكمة العلمية، والسلوك العلمي. وأما البعد العملي فقد سماه: العرفان العملي، والحكمة العملية، والسلوك العملي[٣].

---

(١) شرح الزيارة الجامعة ـ الأحسائي: ج٣ص٥٤.

(٢) رسائل السير والسلوك ـ الرشتي: ص٧٥.

(٣) شرح الزيارة الجامعة ـ الأحسائي: ج٢ص٢٣٦. شرح العرشية ـ الأحسائي: ج٣ص٨٢. شرح الفوائد ـ الأحسائي: ج١ص٢١٧.

وقد تميز العرفان عند الشيخ الأوحد ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ بنحو عام، والعرفان العملي بنحو خاص بخصائص كثيرة، وإشراقات متعددة، ومن أهمها:

١ـ إن العرفان العملي لا استقلال له عن العرفان النظري، ولا النظري عن العملي، وقد تقدم الكلام عن ذلك.

٢ـ إن المصدر الوحيد للعرفان العملي هو الشرع المقدس فقط، وكل عمل وعبادة لم ترد عنه هي في الحقيقة ضلة من الشيطان الرجيم، تُبعد عنه تعالى.

٣ـ إن العرفان العملي عند الشيخ الأوحد ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ ينظم المخلوقات في عقد واحد، ويتعلق بها، فما من مفردة إلا ولها بعد فكري، وارتباط عملي. فالعرفان ـ النظري والعملي ـ يتعلق بالإنسان ـ مثلاً ـ بما هو شخص، وبما هو مكون من مكونات المجتمع، وبما هو جزء من هذا الكون الواسع، وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد.

ومثال ذلك الإمامة، فهي كمال وأمان للمخلوقات، وعلى جميع المستويات؛ إذ إنها للفرد كمال وأمان على المستوى الفكري والعملي، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ، بل كَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ،

وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ، فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ»[١]. وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع، فقد قالت ـ في ذلك ـ مولاتنا الزهراء ـ صلوات الله عليها ـ: «فَجَعَلَ اللهُ... طاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإِمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ»[٢]. وأما بالنسبة للكون وما يحتويه فقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾[٤].

٤ـ إن العرفان استعمال الإنسان كل مشعر وجزء من منه فيما يرضي الله تعالى، وذلك لا يحصل إلا بأن يكون الفؤاد والعقل والحواس والأعضاء واللسان في جميع أحواله متبعاً للرسول الأعظم وأهل بيته ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، وبقدر اتباعهم يكون قدر العارف ومرتبته.

ومثاله مثال الشعاع والشمس، (فإنّ الشعاع إنّما يظهر مستنيراً إذا كان مستمدّاً من الشمس، وإلاّ فإنّه من حيث نفسه لا نور له، بل هو

(١) نهج البلاغة ـ الرضي: ج١ص١٥٤، الخطبة ٨٧.
(٢) الاحتجاج ـ الطبرسي: ج١ص١٣٤.
(٣) سورة الروم: ٤١.
(٤) سورة الجن: ١٦.

من حيث نفسه ظلمة. فكذلك الشيعيّ، فإنّما هو مؤمن وعارف وصالح وناجٍ بمتابعة إمامه، والأخذ عنه، والاقتداء به، فبقدر اقتدائه بإمامه، وطاعته له، ومعرفته به، يكون قدره وإيمانه)[1].

ومن الأهمية بمكان التعرف على العرفان العملي عند الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ، وتبين منهجه السلوكي، وقد كتب الأخ العزيز سماحة الشيخ إبراهيم القديم ـ حفظه الله تعالى ـ كتاباً ـ الذي بين يديك ـ قيماً تناول فيه ذلك، وسماه: **(كيف تصبح عارفاً؟، رحلة في آفاق العرفان العملي للشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي)**، وقد تميز بمميزات ملفتة، وخصائص مهمة، ومن أهمها:

١ـ جمع الكتاب بين دفتيه جوانب مهمة للعرفان العملي والسلوكي عند الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي ـ أعلى الله تعالى مقامه ـ، لا يستغني عنها السالكون.

٢ـ يمثل الكتاب للعارف برنامجاً سلوكياً متقناً، ونظاماً متكاملاً لطالب الكمال، يجمع في طياته نواحي العرفان العملي بشكل مقتضب، وبكلمات سهلة.

---

(١) شرح الزيارة الجامعة ـ الأحسائي: ج١ص٨٠.

٣ـ بيان كيفية السلوك العملي لجوارح وأعضاء الإنسان، وبدنه، فضلاً عن الجانب الروحي منه، وهذا مما يساهم في اختزال جهد السالك للوصول لهدفه، ونجاته من الزلل.

٤ـ كتبه على سبيل الاستفهام والحوار مع كلمات الشيخ الأوحد الأحسائي، وهو أسلوب جذاب، يأسر النفس، ويجعلها تطلب مراتب الكمال، وتشتاق لعالم الملكوت.

وفي نهاية المطاف أرجو من الله العلي القدير أن يوفق شيخنا القديم، وأن يسدده ويلهمه الخير والعمل به، ويبارك له في عمره وقلمه، وأن يجعل كتابه من الباقيات الصالحات.

وأختم ـ بمسك الختام ـ بكلام أمير المؤمنين عليه السلام: «العارف من عرف نفسه، فأعتقها، ونزهها عن كل ما يبعدها ويوبقها»[1].

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الشيخ عبد المنعم العمران الأحسائي

١٤٤٠/٣/١٧هـ

(١) عيون الحكم والمواعظ ـ الواسطي: ص٥٣ ب/ ١ حرف الألف، ف/١ مما أوله الألف واللام.

مقدمة المؤلف

أيها الأيتام! امكثوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1].

الجميع في غربة هذه الدنيا يبحث عن طعم السعادة الأبدية في ظرف تصارع جانبي كيانه ـ حقيقة وجوده، وحقيقة شهوته ـ؛ باستفزاز كليهما له بالركون إليه. الوجود يدعوه إلى الطاعة والامتثال للأوامر الإلهية. والشهوة تدعوه إلى الانغماس والتكبل بأغلال النفس الشيطانية.

وحينما نتفحص حالنا اليوم، نوقن بأن فطرتنا قد تلوثت جراء الركون إلى جانب الشهوة، مع علمنا بصورة أكثر يقينية بأنه مهما بلغ بنا الخطب من مبلغٍ في السعي خلف زخارف الدنيا التي أغفلتنا عن جانبِ وجودنا؛ إلا أننا لم نستطع إسكات صوت ذلك الضجيج الذي

---

(١) سورة النمل ـ الآية: (٧).

لا يستكين برهة، صوت الفطرة التي عليها جُبلنا. فهو ما زال متوغلاً في أعماقنا لم يمت؛ بل غفلنا عنه بسبب الرين الذي أحاط بقلوبنا.

وحينما يعترينا ألم اليقظة الذي يستدعينا النظر بحدة إلى جانب الفطرة، نجده جانباً مهجوراً قد تراكم عليه الغبار جراء عيشنا بصورة مخالفة له؛ على الرغم من أنه يمثل إنسانيتنا، يمثل الآية التي وصف الله سبحانه وتعالى نفسه لنا بها.

قد هجرناه حينما حاولنا أن نعيش وفق حياة تسير على ساق واحدة فقط، وهي ساق الغذاء العنصري الذي يغذي شهواتنا، ونحن غافلون أو متغافلون عن تناول الغذاء الذي يجلو مرآة أنفسنا؛ لينفض الغبار عن ذلك الجانب، فتظهر حقيقتنا، وتشرق كما هي.

نعم، البعض قد انهمك في الاتكاء على هذه الساق لدرجة أن اضمحل عنده جانب حقيقته. البعض قد انغمس فيه حتى وصل إلى نخاعه؛ ولما حاول الصعود من حفرة انغماسه تنفس صادحاً بالمعتقدات التي تؤيد نمط معيشته، وتروي عطش ظمئه؛ فزادت عنده الظلمة، وزاد بعده عن جانب النور.

فاليوم، لا تتعجب حينما ترى قوماً مسلمين يسيرون خلف التيارات الفكرية الفاسدة، التي انتشرت في سبيل إضعاف بنية حقيقة

وجود الإنسان ككل، فهي بمثابة العذر الذي تواروا به لِماَ وجدوا فيه من تأييد لظلمة أنفسهم.

ولا تتعجب حينما ترى قوماً مؤمنين يناشدون بالحرية الدينية ـ وغيرها ـ بمعزل عن الرسالات السماوية، وبموافقة لِماَ جُبلت عليه شهوات نفوسهم؛ فجميعها مجرد نتائج وصل إليها هؤلاء حينما كسروا ساق الحقيقة الإنسانية؛ بابتعادهم عمّا يغذيها ويقوي بنيتها.

والغريب ليس هذا؛ بل حينما تشاهد هؤلاء أنفسهم يسبحون في تيار ويناشدون بقيم التيار المعاكس له تماماً؛ فهم يسبحون مع تيار شهوات النفس الشيطانية، وفي نفس الوقت يناشدون بالقيم الإنسانية الكاملة!

ونحن لن نحصل على قيمنا الإنسانية إن عشنا مثلهم في ضلال شهواتنا، ولن نصل إلى حقيقة وجودنا إلا حينما نسبح في جانب تياره، ونُلزم أنفسنا بغذائه. نحن لن نكون أناسي إلا حينما نلبس صورنا الإنسانية التي تنبع من جانب حقيقتنا، ولن يحدث ذلك إلا حينما نستيقظ من سبات غفلتنا التي نعيش فيها، فالناس كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[1].

(١) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ص٧٣ ج٤/ في الأحاديث المتعلقة بالعلم.. ح٤٨.

فـإذا اسـتيقظنا وعزمنـا علـى السـير في طريـق معرفـة حقائقنـا، ووصلنا لمرحلة أن شابهت فيها نفوسنا أوائل جواهر عللها؛ سوف نحقق كمال إنسانيتنا، وتقرّ بصيرتنا حينما ننعم بطعم السعادة الأبدية التي نصبو إليها جميعاً في النشأتين.

ولكن: كيف نستيقظ؟ وكيف نسير في هذا الطريق؟

هذا الكتاب الصغير ـ الذي بين يديك ـ الذي آمل أن يشعل نور اليقظة، ويضع ولو أولى الخطى لك على هذا الطريق، هو دعوة إلى كل يتيم فقد الاتصال بشعاع أبيه الحقيقي، هو رحلة استنارة نحو نور الحقيقة الإنسانية الكاملة، هو سفر عرفاني عملي شُيّد وفق كلمات شيخ المتألهين، الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره[1].

---

(١) هو الشيخ أحمد ابن الشيخ زين الدين، بن إبراهيم، بن صقر، بن إبراهيم، بن داغر بن رمضان، بن راشد، بن دهيم، بن شمروخ آل صقر، ولد في قرية المطيرفي ـ من قرى الأحساء ـ في شهر رجب عام (١١٦٦هـ)، لقب بالشيخ الأوحد لغزارة علمه وتنوع مصنفاته، أثنى عليه العديد من العلماء ونال من بعضهم إجازات بعضها مطبوع، اشتهر بزهده وورعه وتقواه ونقاوة طريقة مسلكه في العرفان الإسلامي الأصيل، من أشهر مؤلفاته: شرح الزيارة الجامعة، شرح العرشية، شرح المشاعر، شرح الفوائد، توفي وهو في سفره الأخير إلى بيت الله الحرام في شهر ذي القعدة عام (١٢٤١هـ) في منطقة تسمى هدية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونقل جثمانه ودفن في المدينة المنورة في البقيع بالقرب من قبور الأئمة الأربعة عليهم السلام. [سيرة الشيخ أحمد الأحسائي: ص٩ـ١٣، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج١ ص٥٣، إجازات الشيخ أحمد الأحسائي: ص٥. روضات الجنات ـ الخوانساري: ج١ ص٩٧].

قمت بكتابته نزولاً عند إشارة أستاذي الكريم الأبلج، والمحقق الأنجح في آثار المدرسة التكاملية، سماحة الشيخ عبدالمنعم العمران الأحسائي؛ حينما أكد على ضرورة إظهار هذا الجانب من أسرار علوم الشيخ الأوحد قدس سره للناس ـ خصوصاً العوام منهم ـ؛ ليستفيدوا منه في ظرف هم بأمس الحاجة إليه.

فوجب على هذا العبد الحقير أن يكون مذعناً لأمر أستاذه ومولاه، ملبياً رغبتهُ بصدر رحب واسع... ويا لها من تلبية لرد بعض من أبعاض حقه الوافر عليّ.

وقد أجبرني الموضوع ـ وما شعرت به قبل وأثناء وبعد الكتابة ـ بنظمه على طراز أسلوب الحكاية والمزج؛ ليصبح مواراً مفعماً في هيئته، سهلاً أخاذاً في متناوله لدى الجميع.

وقد مهدت له بسطورٍ يظهر منها أحداث بداية انطلاقته، وكيفية سرد حكايته.

أخيراً أقول:

قد يدلك هذا الكتاب على حب ما، أو قد يريك حباً كنت غافلاً عنه، وقد لا ترى شيئاً. قد يساعدك على أن تنفض الغبار عن فؤادك،

وقد يضيف إليه طبقة أخرى حينما تستشعره كما استشعرته أثناء رحلتي معه.

ولكن، أيًّا كان ما سيحدث أرجوك اقرأه بفؤادك؛ لأننا نتكلم عن عالم أبعد من عالمِ الألفاظ والعبارات في كلمات عارف طواه وجاس ثراه، وحينما ننثر كلماته قدس سره في هذا الأمر؛ فجميعنا ـ وأنا أولكم ـ لسنا إلا مجرد متعلمين، سالكين، طالبين.

الشيخ إبراهيم القديم الأحسائي
أول يوم من شهر محرم الحرام
١٤٣٩هـ الأحساء

تمهيد الكتاب

يبدو غريباً حينما أقول:

إن أصعب وقت أعيشه ليس وقت الانغماس في الكتابة تماماً، وإن كان وقت هذه المرحلة أشبه بكابوس يسيطر على أبلغ أحاسيسي حتى يفقدني المتعة في طعم كل شيء، ولا أكاد أجدها إلا حينما أمارس العزلة مع منضدتي ولوحة مفاتيحي، وأنا محاطاً بكمية الكتب تلك، النائم منها على الرفوف ينتظر مني إيقاظه، واليقظ منها في تقلبات يدي ينتظر مني فك أسره وإرجاعه إلى سباته؛ فهو يبدو وقتاً ممتعاً مقارنة بحالة انتهائي من أي كتاب.

فحينما أوقف النقر على لوحة المفاتيح، وأبدأ بجمع شتات الأوراق المبعثرة هنا وهناك، وأضع رزمة الأوراق التي حررت فيها الكتاب الذي انتهيت منه للتو أمامي؛ لا أشعر بنغم سعادة تعتريني، أو تنهد حالة أرمي من خلالها تلك الساعات الطويلة التي قضيتها وأنا منشغلٌ فيها بالبحث عن المصادر، أو تدوين الأفكار، أو محاولة الظفر

بسكب عبارة على الأوراق تجعلني سعيداً من دون الرجوع إليها لاحقاً لصقلها ؛ بل أشعر بغيمة صمت مريعة يخيم سوادها المتسلل على طبيعة جسدي ، في محاولة منها لنثر رذاذ قطراتها على أرض ذلك العالم الذي أحبه ؛ عالم الكتابة الذي أجد فيه كهرباء مثيرة لا تقارن بأي شيء آخر ، والذي لم أجد حتى الآن كلمة يمكنها وصف شعور ذلك العالم وأنا فيه.

ويزيد وطأة وتيرة ذلك الصمت العاصف بي سوءاً ؛ حينما لا يكون لدي فكرة لكتاب جديد أنشغل فيه بسرعة قبل أن يتمكن مني سواد تلك الغيمة ؛ فيشل إثارتي نحو الكتابة ، أو يقتلها لو استسلمت له برهة قصيرة من الزمن.

على أي حال ، هذه الحالة قد باتت كالعادة لي في نهاية مطاف كل كتاب ، قطعت صمتها في آخر مرة بحمل رزمة أوراق الكتاب الذي انتهيت منه للتو ، إلى ذلك الشيخ الجليل المنعم عليّ بفضله في مراجعةِ ومتابعةِ كتاباتي. فلما استقر بي المثول أمامه بعد ترحيبه ، ونثر ورود بسمته على صفحات اللقاء بيننا ، قدمت له تلك الأوراق التي قام بمراجعتها سابقاً ، وحاولت تبرير موقفي في إعادة صياغتها مرة أخرى ؛ مع الأخذ بعين الاعتبار جملة ملاحظاته عليها.

تبسم كعادته وقال: "لماذا لم تقل لي بأنك سوف تقوم بإعادة صياغة أوراق الكتاب؟"

فانطلق صوت مني يعلوه الخجل من فعلتي: "إنّي وجدت رغبة في إخراج الموضوع المبحوث فيه بصورة أفضل مما سبق، كتابةً وتحقيقاً وتدقيقاً؛ ولكن لماذا تسألني؟

هل يوجد لديك ملاحظات غير ما سبق عليه؛ أم أن إعادة المراجعة قد باتت ترهقك؟

أنا أعتذر أيها الأستاذ، فقد كنت أكن لتعبك في إعادة المراجعة شعوراً مخجلاً".

سبقني بالجواب: "أستغفر الله.. فأنا في خدمتكم، وأتشرف بمراجعة كتاباتكم؛ ولكن كنت أتمنى أن يكون لديكم غاية أفضل في الكتابة".

قلت له: "وأي غاية تقصد، فهذا الكتاب[1] قد بنيته على مشرعة التحقيق والتدقيق في قضية عرفان الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره، وأثبت مغايرة مسلكه عن مسلك الصوفية في ذلك!".

(١) هذا الكتاب عنوانه "الشيخ الأوحد حكيم أم صوفي؟" كُتب قبل هذا الكتاب، وقد انطوى مبحثه على التحقيق العلمي في قضية عرفان الشيخ الأوحد الأحسائي قدس سره، وهل كان مسلكه مغايراً لمسلك الصوفية أم لا؟

فقال: "هذا كتابٌ جيد يُلامس غاية معينة في البحث، وشريحة معينة من الناس، ورغبتي أن تكون غايتك ملامسة جميع القلوب في أي قضية تتعلق بالشيخ الأوحد قدس سره، أو بمدرسته".

فقلت: "كيف السبيل لذلك؟".

فقال: "أثناء الكتابة ألتجئ إلى أسلوب التأسيس وإظهار جواهر العلوم من أسرار مدرسة الشيخ الأوحد قدس سره للجميع.

مثلاً، لماذا لا تؤلف كتاباً يتكلم عن العرفان العملي للشيخ الأوحد قدس سره؟

ويكون في صورة مفهومة ومبسطة؛ ليستفيد منه جميع الناس، خصوصاً العوام الذين هم حقيقة في أمسّ الحاجة إلى ذلك الآن. فالكتاب الناجح لا يكون ناجحاً في قوة كلماته ورصانة مباحثه فقط؛ بل في مدى استفادة الناس منه لاحقاً.

فقد يُكتَب كتابٌ في موضوع ما، وبأسلوب علمي جيد؛ ولكن مآله إلى رفوف الكتب، وتكدس الغبار عليه؛ لأن شريحة معينة هي المستفيدة منه فقط.

وقد يُكتَب كتابٌ في نفس ذلك الموضوع، ويكون مآله إلى قلوب الجميع؛ لأن أسلوبه كان مألوفاً ومفهوماً عندهم".

ما زال أستاذي يتكلم حول هذا الأمر، وأنا في الحقيقة لم أكن منصتاً له جلّ الإنصات؛ بل كان هناك عصفٌ في داخلي محاطاً بشعورِ السعادة والفرح؛ لتمكنه من حل مشكلة تلك الغيمة السوداء، التي كانت تخيم على عالمي قبل مجيئي له، وكيف أنه أوجد لي فكرةَ تأليف كتاب ترجعني إلى عالم عدم الإحساس بالوقت، ترجعني إلى منضدتي، ولوحة مفاتيحي، ورفوف كتبي.

وكان هناك شعورٌ عقيمٌ يدعوني إلى عدم أخذ الفكرة أو تقبلها منه؛ لأنها فكرة قد حاولت سابقاً الكتابة فيها ولم تثمر؛ لقلة مصادرها في نظري، وحاجتها إلى إنسان خاض مسلكها بشكل أعمق مني.

قطعت سرحان ذهني، وحديث النفس الذي كان يدور في داخلي، فقلت له:

"ولكنه موضوعٌ صعب، هو بحاجة إلى مصادر عديدة، وإلى كاتب يكون في أصل ذاته عارفاً قد طوى منازل العرفان، وما أنا إلا عبدٌ فقيرٌ لا حول لي ولا قوة".

قطعني تبسمه الهادئ واعتداله في جلسته، فعمّ الصمت قليلاً في الأرجاء ثم قال: "أما بالنسبة إلى المصادر فأنا أرشدك، وأما بالنسبة إلى

كونه يحتاج إلى عارف فنسأل الله أن تكون منهم ؛ ولكن اِسْعَ في الأمر بعد أن يصفو حالك".

لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً سوى أن أهز رأسي بعد حديثه، ومن ثم ترك سفينة اللقاء في يد أمواج المناقشات هنا وهناك، تأخذها من شاطئ إلى آخر ؛ حتى انسرق الوقت منا لمتعته بسرعة البرق.

انفض اللقاء وسط عبارات الوداع الحارة، وهربت بعدها مسرعاً والأفكار قد بدأت تنهال عليّ بشأن فكرة الموضوع الذي طرحه، حتى بت لا أستطيع السيطرة عليها، فخرجت لحظاتها تطفو فوق حديث النفس :

"لا أستطيع الكتابة في هذا الموضوع.. سوف أخسر الوقت والجهد فيه.. من يريد أن يقرأ عن هذا الأمر؟".

وبالرغم من الهالة السلبية التي كانت تكسوني آنذاك ؛ إلا أن هناك بارقة خفية في أعماقي كانت تشدني نحوها وبقوة، فحينما أصرف النظر إلى الجانب الإيجابي يخالج نفسي المرتاعة شعورٌ غريبٌ أشبه بشعورِ الاطمئنان.

لم يستكن لي حال، ولم أعد أميز إن كان هذا هو نفس طعم السعادة التي تعتريني حينما أشرع في كتابة موضوعٍ معيّن، أم أنه طعم

من نوعٍ آخر، يحاول أن يجذبني نحوه في حال أن نفسي ما زالت تحاول الهرب منه؟.

مضى نصف يوم وأنا مشبّعٌ بالكامل من الناحية النفسية تلك، انتهى باستسلامي لخيوط تلك البارقة الدفينة في أعماقي، التي ما زالت تشدني إليها بصورة أطياف أفكار متقطعة؛ فانزويت إلى عزلتي مع أدوات كتابتي، وشرعت بالتفتيش أولاً عن تلك القصاصات التي كنتُ أحتفظ بها سابقاً في هذا الموضوع؛ لعلي أجد فيها خيوطاً تُثيرني، أو أمراً يضع أقدامي على بداية الطريق.

كنت أفكر: كيف أصوغ هذا الموضوع؟

وبِأيِّ أسلوبٍ هو يكون سهلاً ونافعاً في متناول الجميع؟

فأسلوب البحث عن المصادر لجمع الأفكار، ومن ثم تركيبها والعبث بفقراتها في محاولةِ الخروج بسرد علمي جيد، لم أكن أظن بأنه لباسٌ يلائم جسد هذا الموضوع، بل إنه لم يأتِ في مخيلتي بتاتاً؛ لإيماني القاطع بأن هذا الموضوع بحاجة إلى لباس من نوع فريد آخر.

كنت أفكر: هل تقمص شخصية الكاتب وعيش أدوارها أثناء الكتابة ـ كما أفعل في كتاباتي ـ هو السبيل لإنجاح هذا المشروع؟

ولكـن أي شخصـية أتقمـص: شخصـية العـارف، أم شخصـية الصوفي، أم شخصية الدرويش؟ فالأسماء والإطلاقات فيه قد تجعلك إنساناً انفصامي الشخصية لو تجرأت وحاولت تمثيل جميع أدوارها!

لم يثمر النظر في تلك القصاصات بنتائج حسنة، ولم أوفق حتى في وضع خطوة على قارعة الطريق؛ فرميت ما كان في يدي، وتناولت الموضوع من مؤسسهِ قدس سره، تناولته من كاتبه.

نعم، لقد تناولته من الإنسان الذي عاشه ومر بتجاربه؛ فكان أول ما وقع عليه نظري هو قوله قدس سره: (قال بعض العارفين: من خرق سفينة عجبه، وقتل غلام تكبره، وبنى جدار زهده، كشف له عن سرّ معرفته بربه، وقال: النفس بلقيس، والدنيا عرشها، والقلب سليمان، والآخرة ملكه، والعقل الهدهد. فسلط يا أخي هدهد العقل بمرسوم النقل على بلقيس النفس، وهددها بجنود الحق، ولا تقبل منها هدية الخداع، وأرسل عليها عفريت الخوف، ونكِّر لها عرش شهوتها، وأمرها بالدخول إلى صرح التسليم؛ فإذا قامت عليها الحجة، وشهدته صرحاً ممرداً بعد ما كان لجة؛ فعند ذلك ترجع إلى ربها راضية، وتسعد بالسعادة الأبدية)[1].

(١) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢١٠.

استولى عليّ بعد قراءة هذه النص رجفة مرعبة، وأحسست بطاقة هائلة شديدة التكثف تسري في داخلي. شعرت منها بأن هناك شيئاً سوف يتفتت، فأعدت قراءته مرة بعد مرة، إلى أن خُيّلَ ليّ بأن هناك روحاً[1] قابعةً في تلك الكلمات، تحاولُ مناداتي والتواصل معي بصورة غير مرئية.

أصبتُ بالذعر من فكرةِ تخيل نطق كلماته قدس سره؛ إلا أن فضولي جعلني أشق الطريق نحوها بقوة العزيمة المحضة.

ولأوطّد نفسي من خشيتها بادرتها بالسؤال: "من أنتِ؟".

فقالت: "أنا كلمات الشيخ الأوحد قدس سره".

فقلت لها: "هل تدليني على الطريق إلى الله عز وجل؟".

فقالت: "(اعلم: أيها الأخ الناظر... لا يمكنني إرخاء عنان القلم في هذا الميدان؛ لِمَا يستلزم ذلك كشف ما لا يجوز كشفه)[2]؛

(١) لم يكن هناك أي روحٍ حقيقيةٍ تناديني، فأنا لا أدعي الاتصال مع شيءٍ خفيٍ، أو أي أمرٍ ما؛ ولكن مشاعر تلك اللحظة جعلتني أخلق روحاً وهميةً لكلمات الشيخ الأوحد قدس سره وأتحاور معها؛ لاعتقادي بأن كل كلمة من كلماته هي بمثابة حياة كاملة، ولها نبض يسري في جسد من يفهمها، أو يفهم بعضها. فالحوار الذي أجريه في هذا الكتاب مع هذه الروح، هو دائر بيني وبين روحٍ وهميةٍ لكلماته؛ افتعلتها لعنصر الجذب في سردي لا غير؛ وقد بينت ذلك حتى لا يزعم شخص بأنيّ أدّعي مخاطبة الأرواح، أو أدّعي الاتصال مع روحِ الشيخ الأوحد قدس سره.

(٢) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٥٩.

ولكني سوف أجيب (على ما يظهر من ذلك مما يحتمله عوام الناس ... إذ لا يسقط الميسور بالمعسور، وإلى الله ترجع الأمور)[١]".

بدأ قلبي يخفق بجنون، وأطلقتُ تنهيدة عالية ربما أيقظت الموتى في قبورهم، فقلت لها:

"أمسكي بيدي، وخذيني في ركبِ مصنفك، خذيني في أثرِ طريقه بلا هوادة، وأضرمي لهيبَ نارك في قلبي حتى تدثريني بعباءة أسراره".

بعد هذه اللحظة كان شعوري يفوق الوصف، ووجدت نفسي مدفوعاً بصورة غريبة خلف كلماته قدس سره، وحقيقة أنّي قد نسيت أمر الكتابة حينما شغف قلبي في استجداء ما كانت تحتويه من درر.

فبتُ أسير خلفها ناشداً لما تدعو إليه، بتّ أسير خلفها في جَمال رِكَابها، بتّ طالباً سالكاً أكثر من محققٍ فيها.

وعلى الرغم من أنّي لم أكن أملك أدنى فكرة إلى أين ستذهب بي كلماته قدس سره؛ إلا أن مواضيع الحوار بيننا قد انتظمت كحبات عقد در مُذهّب في هذا الأمر؛ فاستمع إلى ما دار، وارتشف من معين طريقه عذباً زلالاً.

---

(١) حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٤.

الفصل الأول:

تهيئة كل النفس
قبل السفر إلى الله ﷻ

السالك: "ما هو أول موضوع سوف نتحدث فيه اليوم أيتها الكلمات؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (كل مسافر يريد قطع مسافة يحتاج إلى الزاد والراحلة؛ لأنهما شرط الاستطاعة. وهذا السفر قبل حصول الشروط، وقبل قطع المسافة والبلوغ إلى الغاية أبعد من كل سفر؛ لأن السفر قد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ وهذا لم تبلغوه إلا بكل الأنفس، وإذا حصلت الشروط كان هذا السفر أقرب من كل سفر. قال عليه السلام: «وإن الراحل إليك قريب المسافة»؛ فأخبر عليه السلام بقرب المسافة للراحل لا للمقيم فافهم، فالمطية هي المحبة؛ يعني: الصادقة، وهي إيثار المحبوب على كل ما سواه، والطريق الموصل والثمن المبلغ إلى تحصيل هذه الراحلة الطيبة، هي القيام بالآداب الشرعية، والصبر على الأخلاق الروحانية)[1].

(١) الرسالة البحرانية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٢.

قبل أن يحزم السالك حقائب سفره إلى الله ﷻ، عليه أن يهيئ كل نفسه التي اشتعلت من نيران الخبائث النفسانية، والأرجاس الشيطانية التي جلبها من ظلم اختياره؛ وذلك من خلال كسر موطن الجهل الذي نزل فيه، وانخدع واغتر بالزينة التي تحويه؛ حتى بات يعتقد أن نعيمه في كثرةِ جمعه وطولِ أمله؛ وهو غافلٌ من أنه ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[1].

مسكينٌ كل إنسان يسير في هذه الحياة وجلّ همّه هو متاعها، ومؤلمٌ حينما تَصرف النظر بالتأمل في مثل هذا المخلوق الذي عرض الله ﷻ عليه الأمانة فحملها؛ فتراه يحيدُ عن غاية وجوده الإلهية، ويعيشُ من أجل غاية شهوات ونزوات نفسه الأمارة بالسوء.

أهو غافل أم متغافل من أن ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]؟!

---

(١) سورة مريم ـ الآية: (٥٩).

(٢) سورة البقرة ـ الآية: (٢٦٨).

أهو ناسٍ أم متناسٍ من أن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[١]؟ وأن تابوت من سبقه فيها لهو حامله، والتراب على وجههِ لهو ناثره، يُشاركُ أحبابَ ذلك المسجى في تشييعه ودفنه، وهو يرى أن ميراثه الذي جمعه منها لم ينفعه، ولأقربائه ذهب إليهم من دون كد أو تعب، فحق بالموت أن يكون له واعظاً، وطوبى لنفسه إن كانت في ذلك الموقف متعظة. فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات؛ فإنه كفى بالموت واعظاً»[٢].

والأكثر ألماً من كل هذا وذلك، حينما تبتليه هذه الدنيا بأسقامها وأوجاعها ويصر على تمسكهِ بها، حتى يطبع الرين على قلبه بما كان يكسب منها؛ فتنغلق نوافذ النور عن ذلك الغريب ـ العقل ـ، وينحجب عن الترقي إلى مراتب السرور التي أعدها الله عزّ وجلّ له.

إن ذلك هو ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٣]. وإن ذلك هو مصير غفلة كل نفس آخت موطن الجهل باستكلابها، وطغيان جنودها على جنود قلبه.

---

(١) سورة الرحمن ـ الآية: (٢٦).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٣ ص٥٤٥ ب٣٠/ الفتن الحادثة بمصر... ح٧٢٠.

(٣) سورة آل عمران ـ الآية: (١٤).

ذلك باختصار شديد هو حال كل إنسان يسير بمعزل عن أمانته ؛ حتى إذا أصبح يقظاً نادماً على فعلته ضج بعد سنين من احتطاب أغصان تلك الشهوات والنزوات على ظهره ضجيج مؤمل لرحمته، ونادى بلسانِ توحيده :

«إلهي ظلمت نفسي، وعظم عليها إسرافي، وطال لمعاصيك انهماكي، وتكاثفت ذنوبي، وتظاهرت سيئاتي، وطال بك اغتراري، ودام لشهواتي اتباعي. إلهي إلهي غرتني الدنيا بغرورها فاغتررت، ودعتني إلى الغيِّ بشهواتها فأجبت، وصرفتني عن رشدي فانصرفت إلى الهلك بقليل حلاوتها، وتزينت لي لأركن إليها فركنت»[1].

فانظر أنت في نفسك نظرة مُعتَبِر إن لم تكن من أهل النظر، وتأمل في حال الدنيا ومن فيها قد عَبر، وسارع في إصلاحها بكسرِ مركب شهواتها، من خلال التجائك إلى جانب النور الذي هو من ربك، واترك زينة غرورها، وطلقها ثلاثاً (يا دنيا غري غيري)[2] ما دمت لم تقل : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾[3] ؛ فإن الباب ما زال مفتوحاً، والنداء

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي : ص٣٦٤ ج٩٤ ب٣/ترتيب نافلة شهر رمضان.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي : ج٣٤ ص٣٥١ ب٣٥/ باب النوادر ح١١٧٥.

(٣) سورة المؤمنون ـ الآية : (٩٩).

ما زال متردداً في كتابه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(١).

ولا قنوط من رحمة الله عزّ وجلّ إن أصابتك السيئة؛ لأنه لا ﴿يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾(٢)، وما عليك إلا خلط ضجيج الدعاء مع حرقة دموع البكاء، والتوجه بقلب خاشع منادياً:

«إلهي كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً، أم كيف تخيب مسترشداً قصد إلى جنابك ساعياً، أم كيف تردُّ ظمآناً ورد إلى حياضك شارباً، كلّا وحياضك مترعة في ضنك المحول، وبابك مفتوح للطلب والوغول، وأنت غاية المسؤول، ونهاية المأمول»(٣).

إلهي «إني أجد سُبل المطالب إليك مشرعة، ومناهل الرجاء إليك مترعة، والاستعانة بفضلك لمن أملك مباحة، وأبواب الدعاء إليك للصارخين مفتوحة. وأعلم أنك للراجين بموضع إجابة، وللملهوفين بمرصد إغاثة، وأن في اللهف إلى جودك والرضا بقضائك عوضاً عن منع الباخلين، ومندوحة عما في أيدي المستأثرين»(٤).

---

(١) سورة غافر ـ الآية: (٧).

(٢) سورة الحجر ـ الآية: (٥٦).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج ٨٤ ص٣٤٠ ب١٣/نافلة الفجر وكيفيتها ... ح١٩.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٨٣ ب٦/ الأعمال وأدعية مطلق ليالي شهر رمضان وأيامه.. ح٢.

فإذا شع قبس اليقظة في كل نفسك بعد جهادك للأمارة التي تدعوك إلى وساوس الشيطان وغرور الجهل، حتى قتلتها وباتت مطمئنة بذكر الله ﷻ، مؤاخية منقادة للعقل؛ انطلق في ظلال: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك؛ ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[١] بلا نهاية، وتكون في طريق «الدعاة إلى الله، والأدلاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله، والتامين في محبة الله، والمخلصين في توحيد الله، والمظهرين لأمر الله ونهيه»[٢]. فإن من طلبهم لم يخب، ومن تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم هلك؛ والفوز هو لمن اتبع ﴿الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٣].

فإذا رجعت نفسك راضية مرضية إلى جانب النور الذي هو من ربك، وسلمَت وانقادَت حتى نَطقت ﴿لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾[٤]؛ اشتغل حينها بمطية المحبة الصادقة في سفرك بعد إيثارك لمحبوبك عما سواه، وخاطبه:

---

(١) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ج١ ص٢٠.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ص١٢٨ ب٨/ الزيارة الجامعة... ح٤.

(٣) سورة البقرة ـ الآية: (١٧٧).

(٤) سورة يونس ـ الآية: (٤٩).

«أن الراحل إليك قريب المسافة، وأنك لا تحجب عن خلقك؛ ولكن تحجبهم الأعمال السيئة دونك، وقد قصدت إليك بطلبتي، وتوجهت إليك بحاجتي، وجعلت بك استغاثتي، وبدعائك توسلي من غير استحقاق لاستماعك مني، ولا استيجاب لعفوك عني، بل لثقتي بكرمك، وسكوني إلى صدق وعدك، ولجائي إلى الإيمان بتوحيدك، وثقتي بمعرفتك مني: أن لا رب لي غيرك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك»[1].

فمطيتك أيها المسافر (هي المحبة؛ يعني: الصادقة، وهي إيثار المحبوب على كل ما سواه)[2]؛ فتنصل عن غير تلك المحبة في مناداتك له بعد يقظتك؛ حتى يمن عليك بنظرة حب منه في طريقك:

«إلهي أنا عبد أتنصل إليك مما كنت أواجهك به من قلة استحيائي من نظرك، وأطلب العفو منك إذ العفو نعت لكرمك.

إلهي لم يكن لي حول فأنتقل به عن معصيتك إلا في وقت أيقظتني لمحبتك، فكما أردت أن أكون كنت، فشكرتك بإدخالي في كرمك، ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٨٣ ب٦/ الأعمال وأدعية..ح٢.

(٢) الرسالة البحرانية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٢.

إلهي انظر إليَّ نظر من ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأطاعك، يا قريباً لا يبعد عن المغتر به، ويا جواداً لا يبخل عمن رجا ثوابه. إلهي هب لي قلباً يدنيه منك شوقه، ولساناً يرفعه إليك صدقه، ونظراً يقربه منك حقه. إلهي إن من تعرف بك غير مجهول، ومن لاذ بك غير مخذول، ومن أقبلت عليه غير مملول»[1].

وأما زاد (الطريق الموصل، والثمن المبلغ إلى تحصيل هذه الراحلة الطيبة)[2]، الذي ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]؛ فسوف يأتي الكلام عليه لاحقاً.

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص٩٨ ب٣٢/ أدعية المناجاة ح١٣.

(٢) الرسالة البحرانية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٢.

(٣) سورة الأحقاف ـ الآية: (٣٠).

الفصل الثاني:

زاد السالك في سفره إلى الله عزوجل

السالك: "بعد أن هيأ السالك كل نفسه؛ ما هو زاده في السفر إلى الله ﷻ؟".

كلمات الشيخ الأوحد ﷺ: (اعلم أنّ التنعم بطيب المآكل والملابس والمناكح، هو النعيم في الدنيا لأهل الدنيا... [و] أنّ طيّب مأكل النفس هي العلوم النافعة، التي هي علم الحقيقة، وعلم الطريقة، وعلم الشريعة، على ما ينبغي بأن يعلم ويعمل... وأمّا طيب الملابس فهو الزهد والتقوى... وأمّا طيب المناكح فمنه ظاهر وباطن؛ فالظاهر هذه الزوجة (المؤمنة الصالحة، تعينه على دنياه ودينه)... والباطن من النّكاح هو نكاح العقل للنفس بعد تأديبه لها بآداب الله حتى تنقاد لأمر الله؛ فإذا انقادت كانت أخت العقل فلا تخالفه؛ بل لا يدرك أكثر الأعمال الصالحة إلا بها...)[1].

(١) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٦ـ٢٧٨.

لا يمكن أن تسير في دربٍ من دون زاد، ولا يمكن أن تضيء دنس ظلام نفسك إلا بشموع مدده وفضله، ونعم عطاياه عليك، فأنت تناديه: إلهي «أنت القائل وقولك حق ووعدك صدق: ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ﴾[1] بكم رحيماً، وليس من صفاتك يا سيدي أن تأمر بالسؤال وتمنع العطية، وأنت المنان بالعطايا على أهل مملكتك، والعائد عليهم بتحنن رأفتك»[2]. وهو يناديك: «عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي، أقول للشيء كن فيكون، تقول للشيء كن فيكون»[3].

وبما أن لكل دار ديارا، ولكل غاية طريقاً ومشواراً؛ فعليك أن تختار لنفسك ما ينجيها في تلك الأكوار والأدوار، فالطريق كما وصفه من جاس تلك الديار: (كثير الأخطار والحيات والعقارب، فيها ظلمات ورعد وبرق)[4].

---

(١) سورة النساء ـ الآية: (٣٢).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٨٣ ب٦/ الأعمال وأدعية مطلق ليالي شهر رمضان وأيامه.. ح٢.

(٣) الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: ص٣٦١.

(٤) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢١.

فالسفر يحتاج منك إلى نوع مخصوص من الزاد والبضاعة يكون فيه تهيئة لنفسك، ووقاية لها من مورد الإضاعة.

فكم من مستغنٍ بغرورِ نفسه تاه في تلك الديار!

وكم من جاسٍ لها تشرد، وصار موطناً لبضاعة الأشرار!

فقال ـ بعد توهمه بقطع الطريق ـ: بالمساواة، والمجانسة، والاتحاد مع الملك الديان[١]؛ وما ذلك كله إلا بسبب عدم توخيه في اختيار نوع الزاد الذي سافر به؛ فضاع عمله، وتشتت جهده، ولم يصل إلا «إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض»[٢]؛ فكان من ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[٣].

وأنت إذا أردت الزاد المستطاب لنفسك، والمطية التي ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾[٤] لتهيئتها وجلوها قبل طي الطريق؛ فتناولها ﴿شَرَاباً طَهُوراً﴾[٥] من كلمات الذين أفاض ربهم عليهم فقالوا: ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ

(١) الرسالة البحرانية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٢٧ـ١٢٨.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص١٨٤ ك/ الحجة ب/ معرفة الإمام والرد إليه ح٩.

(٣) سورة الكهف ـ الآية: (١٠٤).

(٤) سورة طه ـ الآية: (١٠٧).

(٥) سورة الإنسان ـ الآية: (٢١).

اللّـهِ عَلَيْنَـا﴾[١]، (واعتبر بمن كانوا معك وسافروا قبلك إلى الآخرة، واقتَدِ بمن استعد لذلك السفر الطويل بالزاد الجزيل منهم، وحذّر نفسك أن تكون كمن سافر بغير زاد)[٢].

وقد ذَكرَت كلماته قدس سره سُبل تهيئة النفس في ثلاثةِ أمور ـ حاول أن تتناولها بذائقة فضولية لاستكشاف معانيها من أجل إعانة نفسك في سفرها، فإن كل معنى فيها هو في الحقيقة بمثابة حياة كاملة إن تدبرته ـ، هي:

١ـ طيب المآكل

لكل شيء قوام، وقوام الإنسان في جانبيه؛ إما في غذائه العنصري للجسد العنصري من أجل إعانته على تحصيل ما يخصه، وإما في غذائه الروحي للنفس من أجل إعانتها على ورود تلك الحياض، والتنعم بما فيها من رياض.

وأطيب أغذية النفس التي ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٣]، هي (العلوم النافعة، التي هي: علم الحقيقة، وعلم الطريقة، وعلم

(١) سورة يوسف ـ الآية: (٣٨).

(٢) رسالة في جواب السيد إسماعيل "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٤٠.

(٣) سورة إبراهيم ـ الآية: (٢٥).

الشريعة، على ما ينبغي بأن يعلم ويعمل. وأما باقي العلوم فما طلب منها ليتوصّل به إلى هذه الثلاثة كان علماً، وكان نافعاً؛ وإلا فهو جهل ضارّ في الدنيا والآخرة)[١]؛ ([لأن] الأصل في ذلك أن العلوم النافعة ثلاثة، كما في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله وسلم: «آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة، وما خلا ذلك فهو فضل»[٢])[٣].

والمعنى المقصود من علم الحقيقة: هو الآلة المستخدمة في تحصيل (علم التوحيد وما يلحق به)[٤]، وهو يُدرك (بالسر بفيض الحق من غير واسطة؛ إلا نفس ذلك الفيض)[٥]. وطريقهُ: العمل بعلم الطريقة، وعلم الشريعة. (وثمرته: القرب، والأنس، والمشاهدة)[٦].

وأما علم الطريقة: فهو الآلة المستخدمة في تحصيل (علم الأخلاق، وتهذيب النفس)[٧]، (ويُدرك بالقلب بواسطة الإلهام)[٨].

---

(١) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٦.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٣٢ ك/ فضل العلم ب/صفة العلم وفضله وفضل العلماء ح١.

(٣) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٢٤.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢١١.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٢٤.

(٨) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢١١.

وطريقهُ: العمل بعلم الشريعة (مع الإخلاص والمجاهدة. وثمرته: المعرفة)[١].

وأما علم الشريعة: فهو الآلة المستخدمة في تحصيل الأحكام الشرعية الفرعية، ويُدرك (بالكسب بالدرس والسماع. وثمرته: الإخبار عن الله)[٢].

والأول ـ علم الحقيقة ـ هو مصباحٌ للعارف بالكل، وهو مشعل الغاية في الطريق، والثاني ـ علم الطريقة ـ هو الأشعة التي لا فائدة من ذلك المصباح بدونها، والثالث ـ علم الشريعة ـ هو الزجاجة التي تحفظ المصباح وأشعته من الضلال.

ومن أراد الظفر فعليه بصقل مرآة نفسه من كدوراتها وشؤوناتها من كل بحر من تلك العلوم النافعة بمستندها وشرطها؛ حتى تصبح (أثراً ونوراً وصنعاً، والأثر يدل باللزوم على المؤثر، والنور يدل على المنير، والصنع يدل على الصانع)[٣]، وملاك منفعتها ليس محصوراً في كسبها، ببذل التعب والجد في تحصيلها؛ بل هو مقرون بالعمل بها؛

(١) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢١١.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١١.

فالماشي في الطريق يحتاج إلى ساقين سليمتين صحيحتين، هما العلم والعمل، ولو انكسرت إحدهما عرج وتخبط في طريقة مشيه.

فلا طريق من دون العلم النافع؛ أي: اتخاذ الجانب النظري سبيلاً لها، ولا ثمرة من دون العمل؛ أي: اتخاذ الجانب العملي لِدرك نعيمها[١]؛ ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»[٢]، وقال الإمام السجاد عليه السلام: «العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً، ولم يزدد من الله إلا بعداً»[٣].

وأنت إذا أطعمتَ نفسك من مائدة العلوم النافعة، وعملتَ بها؛ تهيأت وحيت (من موتها كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[٤]، مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[٥]، إلى آخر الآيات؛ فهذه العلوم النافعة هي طيّب مأكل النفوس، التي أمرتم بالأكل منها في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٦])[٧].

---

(١) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٨٦.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٤٤ ك/ فضل العلم ب/ استعمال العلم ح٢.

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٤٥ ك/ فضل العلم ب/ استعمال العلم ح٤.

(٤) سورة الأنعام ـ الآية: (١٢٢).

(٥) سورة عبس ـ الآية: (٢٤).

(٦) سورة البقرة ـ الآية: (٥٧).

(٧) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٧.

٢ـ طيب الملابس

أما طيب الملابس: فتُجرد نفسك من ثوبِ الخطايا الذي ألبستها إياه من ظلمة الأعمال الشيطانية والوساوس النفسانية بعد اشتغالك بالاعتراف إليه: «إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلّتي، وجلّلني التّباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي، ويا سؤلي ومنيتي»[١].

فإذا أخرجك الله ﷻ ﴿مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾[٢]؛ هيئ لها لباساً يحييها، ويستر عورة (المعاصي التي لا ينفك عنها ممكن في كل مقام بحسبه)[٣]؛ وليس هناك لباساً تُلبسه نفسك أفضل من لباسِ (الزهد والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[٤]؛ فإن كل لباس غير التقوى لا يستر صاحبه؛ بل تنكشف معه عورته، وما أحسن ما قال الشاعر:

ثوب الريا يشفّ عمّا تحته فإذا التَحفْتَ به فإنك عار)[٥].

---

(١) الصحيفة السجادية ـ الإمام زين العابدين: في مناجاة التائبين ص٤٠١.

(٢) سورة المائدة ـ الآية: (١٦).

(٣) كيفية السلوك إلى الله ـ السيد كاظم الرشتي: ص٣٧.

(٤) سورة الأعراف ـ الآية: (٢٦).

(٥) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ص٢٧٧.

وحياكة أوبار هذا اللباس ـ لباس التقوى ـ يكون بغزل النفس المريضة والمحجوبة بمغزل الطاعة، والمداومة، والمراقبة لها في كل شيء.

سواء كان فيما بينك وبين الله ﷻ؛ (فلا تنظر غير الله إلا بالعرض، كأن تراه سبباً لفعل الله، أو مظهراً لقدرته، ولا تعتمد على غير الله في شيءٍ قَلَّ أو جَلَّ؛ فإن ما سوى الله ليس شيئاً إلا بالله، ولا تثق بغير الله في كل حال؛ بل اتق الله أن تنظر لغير الله شيئيَّةٍ في كل لحاظٍ إلا به)[1].

أو كان فيما بينك وبين نفسك؛ (فلا تلين لها، ولا تتركها وشهواتها فتوردَك المهالك؛ بل تجعل همك في جهادها، وحملها على الانقياد لأمر الله والإيمان)[2].

أو كان فيما بينك وبين الناس؛ (بأن تجتنب ما حملوك من العادات المخالفة للشرع، والآراء، ومجالسة أهل الغفلة منهم والمعاصي، وأن تجتنب كلّ ما لا يحبون منك مما لا يُرادُ منك شرعاً؛ بل تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وتكون مؤمناً بذلك ـ كما ذكرنا ـ، وتعمل وتحسن العمل فإنه تمام الأمر)[3].

---

(١) رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص١٥٢ـ١٥٣.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

وإذا أردت كمال التقوى عليك (أن تترك المباح ؛ بل المندوب إذا علمت أنه يجوز أن يكون في الواقع حراماً، أو يجر إلى الحرام ولو بلوازم العادات)[١].

وأما الزهد: فهو ليس في لبس المرقعات والرث الرديء من الثياب، وليس هو الانقطاع الكامل عن الدنيا ، وترك المعاش والدب في الأرض، و(ليس هو تحريم الحلال ولا تضييع المال ؛ وإنما هو ألا تكون بما عندك أوثق منك بما عند الله)[٢] ؛ فاسعَ في الأرض، وابتغ ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٣]، واطلب حاجتك منها بقدر ما يعينك فيها، (ووظف أوقاتك ولا تضيِّعها بالبطالة[٤]، واصرفها فيما خلقت لأجله)[٥]. و(عماد هذا وقوامه المصلح للمعاش والمعاد، هو التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرجاء في الله، وحسن الظن بالله)[٦].

---

(١) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٧.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة القصص ـ الآية: (٧٧).

(٤) سوف يأتي في كلماته قدس سره كيفية الزهد في الأحوال والأفعال والأقوال لاحقاً.

(٥) كيفية السلوك إلى الله ـ السيد كاظم الرشتي: ص٥٢.

(٦) الشفاء الإلهي في مجربات الأحسائي ـ علي خليل الحداد الكوفي: ص٤١.

وكمال الزهد: هو (ألا تأس على ما فاتك، ولا تفرح بما أتاك)[١]؛ فإن الندم على ما فات يُضيّع الفرص فيما هو آت؛ إلا أن يكون ندم على ذنب قد مضى، (فربّما لو اهتممت بما مضى كان شاغلاً لك عما يأتي، ولا يرجع لك ما مضى، وتستدرك ما مضى بالندم والاستغفار)[٢].

فمحاسبة النفس أمرٌ مرغوبٌ فيه، بل هو مفتاح تطهيرها من أدرانها العالقة بها، وهو صمام حفظها عن المحارم؛ ولكن عليك أن تحذر من الإفراط فيه؛ لأن ذلك (إنما هو من إلقاء الشيطان، وهذا هو النجوى الذي ذكره في كتابه فقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣])[٤].

وأما الفرح بما هو آت فإنه قد يورث العجب والغرور، خصوصاً حينما يبلغ الإنسان حداً في الكمال يعجب فيه بنفسه. فهذا المرض هو أخطر الأمراض الخبيثة التي تبعد عن الله عزّ وجلّ، وتطرد صاحبها من حياض محبته.

---

(١) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٧.
(٢) رسالة في جواب السيد إسماعيل "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص ٤١.
(٣) سورة المجادلة ـ الآية: (١٠).
(٤) الشفاء الإلهي في مجربات الأحسائي ـ علي خليل الحداد الكوفي: ص٣٥.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من دخله العجب هلك»[٢].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «دَخَل رجلان المسجد: أحدهما عابدٌ والآخر فاسق؛ فخرجا من المسجد والفاسق صدّيقٌ والعابد فاسق! وذلك أنه يدخل العابد المسجد مُدِلاً بعبادته يُدلُّ بها فتكون فكرتهُ في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندم على فسقه ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب»[٣].

٣ـ طيب المناكح

(وأما طيب المناكح: فمنه ظاهر وباطن. فالظاهر)[٤]: هو الزوجة المؤمنة الصالحة التي تعين زوجها على دينه ودنياه؛ فيكسر بمعاشرتها هوى النفس في طموح المحارم، وتُلبسه ستار التعفف، كما هو يُلبسها ذلك، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٥]؛ فتميل نفسه إلى الأعمال الصالحة بعد استراحتها من عناء الظلم التي كانت فيه.

---

(١) سورة الحديد ـ الآية: (٢٣).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج ٦٩ ص٣٠٩ ب١١٧/ استكثار الطاعة والعجب بالأعمال ح٣.

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ص٣١٤ ك/ الإيمان والكفر ب/ العجب ح٦.

(٤) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٨.

(٥) سورة البقرة ـ الآية: (١٨٧).

وأما (الباطن من النكاح: هو نكاح العقل للنفس بعد تأديبه لها بآداب الله حتى تنقاد لأمر الله؛ فإذا انقادت كانت أخت العقل فلا تخالفه)[١]؛ لأن النفس بعد هبوطها من عالم الملكوت الأعلى إلى البدن (كانت غيباً في النفس النباتية التي في النطفة؛ لخراب مسكنها بعد التكليف الأول، وتبقى كامنة في النباتية، والنباتية تبني لها مسكنها وهي مجتمعة، قد وضعَتْ رأسها بين ركبتيها ونامت، فإذا تم بناء بيتها رفعت رأسها)[٢].

فإن زُكيت بالعلم والعمل الصالح ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[٣]، واشتدت في تجوهرها، وشابهت مبدأها ـ العقل الكلي ـ، ورجعت إلى أصلها.

وإن (رَكبت مناهي الله خرت من السماء فتخطفها الطير؛ أي: الشياطين، أو تهوي بها الريح؛ أي: هواها وشهواتها في مكان سحيق؛ أي: في سجّين، إن ذلك)[٤] ﴿مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ

(١) رسالة في جواب الأخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٨.

(٢) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٩٩.

(٣) سورة الحج ـ الآية: (٥).

(٤) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٠١.

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]؛ وهو مصداق قول أمير المؤمنين عليه السلام ـ حينما سُئل عن العالم العلوي ـ: «خُلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل، فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد»[٢].

فأنت دائماً تعيش في حرب مشتعلة، فيها:

١ـ جانب يجرك نحو مناهي الله عزوجل، إذا طرأ عليك بجنوده فسيطر على جميع جوارحه وأعضائه، وتذكر ماذا قال أولئك ﴿لَّمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

٢ـ وجانب يجرك نحو طاعة الله عزوجل، إذا طرأ عليك فتمسك ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ﴾[٤]، وإذا تباطأت همتك عنه أججه بندائك له:

«إلهي هذه أزمة نفسي عقلتها بعقال مشيتك، وهذه أعباء ذنوبي درأتها بعفوك ورحمتك، وهذه أهوائي المضلة وكلتها إلى جناب لطفك

---

(١) سورة فصلت ـ الآية: (٣٩).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٠ ص١٦٥ ب٩٣/ علمهُ عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله.. ح٥٤.

(٣) سورة البقرة ـ الآية: (٢٥٠).

(٤) سورة آل عمران ـ الآية: (١٧١).

ورأفتك، فاجعل اللهم صباحي هذا نازلاً عليّ بضياء الهدى، والسلامة في الدين والدنيا، ومسائي جنة من كيد العدى، ووقاية من مرديات الهوى، إنك قادر على ما تشاء. تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب»[1].

(وبالجملة، فهذه المآكل والملابس والمناكح الطيبة هي النعيم الطيب؛ لأنّ هذه تثمر العلوم الحقَّة والمعارف الإلهية، فيكون المرء بين ما فهم رشده وبلغ أشدّه، إلى أن يكون حكيماً ربّانيّاً يتنعم بثمرات العلوم وصالحات الأعمال حتى إذا كان كذلك استغنى بتعليم الله عن تعليم الناس، كما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2]؛ يعني: أن من أحسن آتيناه حكماً وعلماً ولن يخلف الله وعده)[3]؛ ولكن هذا الاستغناء لا يشمل

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ص٣٤١ ب١٣/ نافلة الفجر وكيفيتها وتعقيبها.. ح١٩.
(٢) سورة يوسف ـ الآية: (٢٢).
(٣) رسالة في جواب الآخوند الملا محمد حسين البافقي "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٠ ص٢٧٩.

جانب الاستغناء عن فيض النبي الأعظم محمد وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم ـ؛ لأنهم المرشدون والمعلمون لكل خير؛ بل وأصله كما سيأتي لاحقاً.

الفصل الثالث:

مراقبة النفس في أحوالها وأفعالها وأقوالها

السالك: "كيف يراقب السالك نفسه في أحواله وأفعاله وأقواله؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: [يراقبها بما] (سنّه أئمة الهدى عليهم السلام، وهو أن تسلك الطريقة المستقيمة في الأحوال والأفعال والأقوال.

أمّا في الأكل والشرب: فلا تأكل حتى تجوع، فإذا أكلت فلا تشبع؛ بل تبقي من شهوتك، ولا تشرب حتى تعطش، وإذا شربت فلا ترو.

وأمّا في العبادة: فتحسن وضوءك، وتقرأ عنده الأدعية المأثورة، وسورة القدر في أثنائه، وبعد الفراغ تقرأها ثلاثاً، وتحسن صلاتك، وتقبل عليها بقلبك، وفرّغ قلبك في صلاتك لعبادة ربك، وتصلي صلاة مودَّع.

وأمّا في أحوالك: فاجعل قلبك منبراً للملائكة، ولا تجعله مربطاً لحيوانات الشهوات، ولتكن ذاكراً لله كثيراً بأن لا تغفل عن الله،

فتذكره عند الطاعة فتفعلها، وعند المعصية فتتركها، ولا تحقر شيئاً من طاعة الله؛ فعسى أن يكون فيه رضا الله، ولا شيئاً من معاصي الله؛ فعسى أن يكون فيه سخطه...

وأما أفعالك: فإن قدرت أن لا تتحرك ولا تسكن إلا بما يُوافِقُ محبة الله فافعل. فاجعل سعيك إلى المساجد ومواضع الذكر، وبطشك في ما أمر الله تعالى، ونظرك وسمعك وجميع جوارحك.

وأمّا أقوالك: فلا تنطق إلا فيما يعنيك في الدنيا والآخرة، وعليك بقراءة القرآن بتدبر فإنه مفاتيح خزائن الغيب)[1].

لا غنى للسالك عن أمر المراقبة والمحاسبة للنفس في الأحوال والأفعال والأقوال؛ لأن استدامتها على الطاعات في كل حال يزرع فيها خشية الله تعالى التي تبعده عن محارمه ﷻ، ويوقظ فيها نور الأنس من حلاوة الأثر المشرق من صبح الأزل؛ فما تزال نفسه تتقلب في لذة القرب حتى تطلب المزيد والمزيد في استدامة بقائها على هذه الصورة الإنسانية الملكوتية، وهي تناديه متقربة في صحو حالها:

(١) رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص١٥٢.

إلهي «أسألك بحقك وقدسك، وأعظم صفاتك وأسمائك، أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً.

يا سيدي! يا من عليه معولي، يا من إليه شكوت أحوالي، يا رب يا رب يا رب، قوّ على خدمتك جوارحي، واشدد على العزيمة جوانحي، وهب لي الجد في خشيتك، والدوام في الاتصال بخدمتك، حتى أسرح إليك في ميادين السابقين، وأسرع إليك في المبادرين، وأشتاق إلى قربك في المشتاقين، وأدنو منك دنو المخلصين، وأخافك مخافة الموقنين، وأجتمع في جوارك مع المؤمنين»[1].

وأنت من أجل أن تبقى نفسك سائرة متقلبة في أبعاد المساحات والمسافات، عليك بمراقبةِ وعائِك الجسدي العنصري وما يدخل فيه؛ فلا تثيره بالشبع، ولا تغذيه حتى يطلِبُك الجوع، وإن أكلتَ ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[2] فلا تشبعهُ من

(١) إقبال الأعمال ـ السيد ابن طاووس: ج٣ ص٣٣٦ ب٩ ف٥١/ فيما نذكره من الدعاء والقسم.. دعاء كميل.

(٢) سورة البقرة ـ الآية: (٦١).

إطعامك إياه ؛ حتى لا يبطش عليك بشهوته إذا استجنت كثرة الغذاء فيه، ولا ترويه إذا شرِبت ؛ حتى لا يعلق بما يخافُ عليك منه إذا انزوى نحو ملذاته.

وأما في أمور عبادتك: فعليك بالصلاة لأنها معراج المؤمن، وهي «صلة الله للعبد بالرحمة، وطلب الوصال إلى الله من العبد إذا كان يدخل بالنية، ويكبر بالتعظيم والإجلال، ويقرأ بالترتيل، ويركع بالخشوع، ويرفع بالتواضع، ويسجد بالذل والخضوع، ويتشهد بالإخلاص مع الأمل، ويسلم بالرحمة والرغبة، وينصرف بالخوف والرجاء»[1]. فحسّن وضوءك لها، واقرأ (الأدعية المأثورة، وسورة القدر في أثنائه، وبعد الفراغ تقرأها ثلاثاً، و[عليك أن] تحسن صلاتك، وتقبل عليها بقلبِك، وفرّغ قلبك في صلاتك لعبادة ربّك، وتصلي صلاة مُوَدّعٍ)[2] ؛ ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[3].

واحرص على تزيين صلاتك في آخرها بما ورد في ذلك عنهم عليهم السلام ؛ كتسبيح الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد ورد أن

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨١ ص٢٤٦ ب١٦/ آداب الصلاة ح٣٧.

(٢) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

(٣) سورة البقرة ـ الآية: (٤٥).

الإمام الصادق عليه السلام قال: «تسبيح فاطمة عليها السلام في كل يوم، في دبر كل صلاة؛ أحب إليَّ من صلاة ألف ركعة، في كل يوم»[١]، وكالدعاء لنفسك وللمؤمنين بما شئت، و«أقل ما يجزيك من الدعاء بعد الفريضة أن تقول: اللهم إني أسألك من كل خيرٍ أحاط به علمك، وأعوذ بك من كل شرٍ أحاط به علمك، اللهم إني أسألك عافيتك في أموري كلها، وأعوذ بك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»[٢].

وأما في سائر أحوالك: (فاجعل قلبك منبراً للملائكة، ولا تجعله مربطاً لحيوانات الشهوات، ولتكن ذاكراً لله كثيراً بأن لا تغفل عن الله، فتذكره عند الطاعة فتفعلها، وعند المعصية فتتركها)[٣]، واستبطن في قلبك دائماً أنك أثرٌ من نور مشيئته، واطلب منه فتح بصيرة قلبك لتنقطع عما سواه في طريقك حتى تصل لغايتك: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور؛ فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك»[٤].

---

(١) الحدائق الناضرة ـ المحقق البحراني: ج٨ ص٥١٦.

(٢) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج٦ ص٤٦٩ ب٢٤/مما يستحب أن يدعا به عقيب كل فريضة ح(٨٤٦٥).

(٣) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص٩٩ ب٣٢/ أدعية المناجاة ح١٣.

والمؤمن الكيّس الناظر بنور ربه هو الذي يوقن بأن كل عمل صغر أو كبر سوف يُعرض على إمامه عليه السلام في كل يوم وليلة، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «إن أعمالكم لتعرض عليَّ في كل يوم وليلة»[1]؛ فلا تجعل في صحيفة أعمالك شيئاً يبغضه؛ بل كُن منفعل الهمة، أكّاد الإرادة في تجلي أعمالك بالصورة التي يرتضيها عليه السلام، حتى يفيض عليك من مدده ولطفه وعنايته.

فلا طريق للوصول إلى الله عزّ وجلّ إلا منهم وبهم عليهم السلام؛ لأنهم الحبل الممدود بين الأرض والسماء، فالتجئ بباب عصمتهم، ونادِ في ليلك ونهارك:

«إلهي ما أوحش طريقاً لا يكون رفيقي فيه أملي فيك، وأبعد سفراً لا يكون رجائي منه دليلي منك، خاب من اعتصم بحبل غيرك، وضعف ركن من استند إلى غير ركنك، فيا معلم مؤمليه الأمل فيذهب عنهم كآبة الوجل، ولا تحرمني صالح العمل، واكلأني كلاءة من فارقته الحيل، فكيف يلحق مؤمليك ذل الفقر، وأنت الغني عن مضار المذنبين»[2].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٢٢٠ ك/ الحجة ب/ عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ح٤.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص٩٦ ب٣٢/ أدعية المناجاة ح١٢.

(ولا تحقر شيئاً من طاعة الله؛ فعسى أن يكون فيه رضا الله، ولا شيئاً من معاصي الله؛ فعسى أن يكون فيه سخطه)[١]؛ فقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[٢]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٣]، فمهما كان عملك الصالح أو السيئ صغيراً فلا تحقره؛ لأنه ﴿مَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٤].

وأما أفعالك: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ﴾[٥] في حركاتها وسكناتها، (فإن قدرت أن لا تتحرك ولا تسكن إلا بما يُوَافِقُ محبة الله فافعل، فاجعل سعيك إلى المساجد، ومواضع الذكر، وبطشك في ما أمر الله تعالى، ونظرك وسمعك وجميع جوارحك)[٦] سخرها في ما يريده منك من طاعته؛ لأنك إن غفلت عنها باستعمالها في محارمه كُنتَ

(١) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

(٢) سورة الزلزلة ـ الآية: (٧).

(٣) سورة الزلزلة ـ الآية: (٨).

(٤) سورة يونس ـ الآية: (٦١).

(٥) سورة البقرة ـ الآية: (١٩٧).

(٦) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

من ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]، وإن صنتها وعلمتها مما علمك الله ﷻ كُنتَ من أولئك الذين يدعونه:

«إلهي تناهت أبصار الناظرين إليك بسرائر القلوب، وطالعت أصغى السامعين لك نجيّاتُ الصدور، فلم يلقَ أبصارهم ردّ دون ما يريدون، هتكت بينك وبينهم حجب الغفلة فسكنوا في نورك، وتنفسوا بروحك، فصارت قلوبهم مغارساً لهيبتك، وأبصارهم ماكفاً لقدرتك، وقربت أرواحهم من قدسك، فجالسوا اسمك بوقار المجالسة وخضوع المخاطبة، فأقبلت إليهم إقبال الشفيق، وأنصت لهم إنصات الرفيق، وأجبتهم إجابات الأحباء، وناجيتهم مناجاة الأخلاء، فبلغ بي المحل الذي إليه وصلوا، وانقلني من ذكري إلى ذكرك، ولا تترك بيني وبين ملكوت عزك باباً إلا فتحته، ولا حجاباً من حجب الغفلة إلا هتكته، حتى تقيم روحي بين ضياء عرشك، وتجعل لها مقاماً نصب نورك إنك على كل شيء قدير»[2].

---

(١) سورة النحل ـ الآية: (١٠٨).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص٩٥ ب٣٢/ أدعية المناجاة ح١٣.

(وأما أقوالك: فلا تنظر إلا فيما يعنيك في الدنيا والآخرة)[١]، وإذا نظرت فاجعل نظرك في فكرِ آياته، وشؤون تجلي صفاته، فهو الداعي إليك في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

(وعليك بقراءة القرآن بتدبُّرٍ فإنه مفاتيح خزائن الغيب)[٣]؛ لأنه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان؛ زيادة في هدى، أو نقصان من عمى.

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لاوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله.

واعلموا أنه شافعٌ مشفع، وقائلٌ مصدق، وإنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن مَحَلَ به القرآن يوم القيامة صدق

---

(١) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

(٢) سورة الحشر ـ الآية: (٢١).

(٣) رسالة في جواب السيد محمد البكاء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢.

عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم»[1].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص٢٤ ك/ القرآن ب١/ فضل القرآن وإعجازه... ح٢٤.

الفصل الرابع:

مَرشد السالك في سفره إلى الله عزّ وجلّ

السالك: "هل أحتاج إلى مُرشدٍ أو مُعلمٍ في سفري إلى الله ﷻ؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (المريد بقطع الطريق يأتي البيوت من أبوابها والأبواب هم أهل العصمة عليهم السلام... ففي الحقيقة ظاهراً وباطناً هم المرشدون إلى كل خير من اقتدى بهم، وهم الذائدون عن ورود الحق من لم يقبل واتخذ دونهم الولائج؛ لأنهم هم أبواب الله...وأما الاقتباس من نور الشيخ والاستضاءة منه؛ إنما يراد به في الحقيقة التنبيه والتذكير، المعبر عنه بالإصلاح للقابلية)[1].

إذا استيقظت نفس العارف من سباتِ غفلتها، وتحاسبت وندمت، وخرجت من زمرة ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٢٤ـ٤٥.

وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[١]، ودخلت في زمرة الذين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٢].

إذا تداوت من جراحاتِ أمراضها، وتطهرت بنارِ شوقها، ورغبت بالسفرِ في صحائفِ سعادتها بعدما تزودت بالعلم والعمل، والتقوى والأعمال الصالحة، وصانت جميع جوارحها في أحوالها وأفعالها وأقوالها بما ورد في الكتاب والسنة بإخلاص نية.

إذا وجدت نقصاً في مشخصاتها قبل سفرها وفي أثنائه، وطلبت تكميلها من كامل أعلى منها، فعليها أن تأتي البيوت من أبوابها؛ لأنه الطريق الأقرب إليه ﷻ.

وبابهُ الذي منه يؤتى ويقرع هو بابهم عليهم السلام، لأنهم في الحقيقة هم القرى التي قال تعالى فيها: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾[٣]، (وهم المرشدون إلى كل خير من اقتدى بهم، وهم الذائدون عن ورود الحق من لم يقبل واتخذ دونهم الولائج؛ لأنهم هم أبواب الله، فلا ينزل من الله سبحانه

(١) سورة يونس ـ الآية: (٧).
(٢) سورة المؤمنون ـ الآية: (١٠٩).
(٣) سورة سبأ ـ الآية: (١٨).

خيرٌ من وجودٍ ونورٍ وخلقٍ ورزقٍ وحياةٍ وممات إلى أحد من سائر المخلوقات إلا بواسطتهم، ولا يصعد عملٌ ولا دعاءٌ ولا شيء من المخلوقات إلى الله إلا بواسطتهم، وقد قرروا الحق، وأوضحوا السبل، وبينوا أنه لا يصاب الحق بغيرهم وإنما بهم يُعرفُ الله)[1].

فليس هناك طريق أقرب من طريقهم عليهم السلام، ولا سبيل أقوم من سبيلهم عليهم السلام.

كيف؟

وأنت تدعو في زيارتهم:

«اللهم إني لو وجدت شفعاء أقرب إليك من محمد وأهل بيته الأخيار الأئمة الأبرار؛ لجعلتهم شفعائي، فبحقهم الذي أوجبت لهم عليك؛ أسألك أن تدخلني في جملة العارفين بهم وبحقهم وفي زمرة المرحومين بشفاعتهم»[2].

وعلى هذا، فإن أردت تكميل نقص نفسك بعد انتفاضتها فعليك باللجوء إليهم عليهم السلام؛ لأن الكامل الذي تطلب منه إكمال نقص نفسك بفاضل كماله (لا بُدّ أن يكون قبل السافل وبعده؛ وإلا فلا يكون

(١) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٢٥.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ص١٣٣ ب٨/ الزيارات الجامعة.. الزيارة الثانية ح٤٤.

مكملاً)[1]، وهم وحدهم عليهم السلام من لديهم القدرة على تكميل السافل بفاضل كمالهم.

أما ترى كيف أنهم يكملون السافل برفعه من نقص رتبته إلى رتبة الأعلى منه؟ كإنطاقهم الحجر والحيوانات بالكلام العربي، الذي هو متعذر في رتبتهم.

وأيضاً هم وحدهم عليهم السلام من لديه القدرة على النزول إلى مظاهر السافلين ومخاطبتهم؛ أما ترى في همهمتهم للطيور، وتكليمهم للحيوانات بلغاتهم؟

فقد روي عن محمد بن مسلم، أنه قال: «كنت مع أبي جعفر عليه السلام بين مكة والمدينة، وأنا أسير على حمار لي، وهو على بغلته، إذ أقبل ذئبٌ من رأسِ الجبل حتى انتهى إلى أبي جعفر، فحبس عليه السلام البغلة، ودنا الذئب حتى وضع يده على قربوس السرج، ومد عنقه إلى أذنه، وأدنى أبو جعفر أذنه منه ساعة، ثم قال: امضِ فقد فعلت، فرجع مهرولاً.

قال: قلت: جعلت فداك، لقد رأيت عجباً.

---

(١) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣١.

قال: وتدري ما قلت؟

قال: قلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم.

قال: إنه قال لي: يا ابن رسول الله، إن زوجتي في ذاك الجبل، وقد تعسر عليها ولادتها؛ فادعُ الله أن يخلصها، ولا يسلط أحداً من نسلي على أحد من شيعتكم، قلت: فقد فعلت»[1].

وروي أن الحجر الأسود نطق بلسان عربي، واستشهد بالإمامة للإمام السجاد عليه السلام؛ حينما قال له:

«أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء، وميثاق الأوصياء، لما أخبرتنا بلسان عربي مبين؛ من الوصي والإمام بعد الحسين بن علي؟»

فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه الله جلّ جلاله بلسان عربي مبين فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي إلى علي بن الحسين عليهما السلام[2].

وأما المعلمون والمرشدون من أهل الطريق الذين تقتدي بهم في زادك وسفرك؛ (فإنهم في الحقيقة منبهون للمتعلم على ما غفل عنه،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهر آشوب: ج٣ ص٣٢٢ ب/ إمامة أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(٢) إعلام الورى ـ الشيخ الطبرسي: ج١ ص٤٨٥ الركن الثالث/ في ذكر الأئمة من أبناء أمير المؤمنين عليه السلام ... ب٣/ ذكر الإمام السجاد عليه السلام ف٣/ ذكر شيء من معجزاته عليه السلام.

ومذكرون له ما نسيه)[١] فقط ؛ لأن السائر إن أراد من المعلم تكميل نفسه وجب أن يكون معلمه أعلى منه في الرتبة ؛ ليمدده بالمدد والفيض من فاضل كماله ، أي : يكون علة له ، وهذا محال ؛ لاشتراكهما في رتبة الإنسانية ، ولو كان كذلك ، فإنه إذا مات المعلم وجب أن يموت معلوله ؛ أي : يموت مستمد الفيض من كماله ؛ لأنه له (كالضياء ، فإنه لا وجود له بدون المنير)[٢] ، ومثل هذا لا يكون مكملاً.

وإن أراد تكميل نفسه في تعليمها ـ بتنبيهها ، وتذكيرها ، وإصلاح مشخصات قابليتها ـ ، بالاقتباس من الشيخ المرشد العالم الذي سلك طريقهم عليهم السلام ، إن كان في أمرها شأن قد توقف على تنبيهٍ أو هدايةٍ فلا بأس ؛ (لأن الشيخ قد يكون من متممات المشخصات للقابلية)[٣].

فإذا تعلم السالك (عند من تهيأ باستعداده من التعلمِ والمجاهدةِ حتى شاهد اليقين ؛ أشرق من نورهِ عليه ، فأخذ بيده ، وقوى فكره بخطابه ، واستنار عقله ببيانه ، وثبت قلبه بهداه ، وعمله بالاقتداء به ؛ فينفتح له ما انفتح لشيخه)[٤].

---

(١) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٩ ص٢٥.

(٢) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٩ ص٣١.

(٣) نفس المصدر السابق : ج٩ ص٤٥.

(٤) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٨ ص٣٢١.

(فالعالِم معين للإصلاح لا أنه مفيض للأنوار)[١]، وفي حقيقة الأمر أن توجه وطلب العارف يكون بهم وبهدايتهم ورشدهم عليهم السلام.

ومن أجل ألّا يغويك أهل الغواية، وتنخدع بمن ادّعى الوصال إلى الغاية، فتتبع ﴿فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]؛ عليك أن تميّز أولو الأفئدة المرشدين المذكرين، (الذين سلكوا في تلك المعارج بظاهر طريق أهل العصمة عليهم السلام؛ لا بباطن طريقهم من دون ظاهره)[٣]، من أولئك الذين سلكوا لجة الشيطان، وابتغوا الفتنة والمعارضة لأبواب الرحمن.

فإن نظرت في حالهم ورأيتهم لا يخالفون الشرع ظاهراً ولا باطناً في جميع أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، من تحقيق ومجاهدة ورياضة، ولا يخالفون حتى ظاهر العوام؛ فيجوز لك التمسك بذيلهم، والاقتباس من أنوار طريقتهم.

وأما إن لم يكن ظاهرهم وباطنهم موافقاً للشرع؛ فلا تعتد بما عندهم فإنه ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا

(١) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٤٥.

(٢) سورة الأعراف ـ الآية: (٣٠).

(٣) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٥٠.

يَفْتَرُونَ﴾[١] ؛ (لأن الشارع عليه السلام ما ترك شيئاً إلا وأبانه لسائر الناس، وما لم يبنه لم يجز لأحد بيانه، وإنما كان هذا هو الفرق والعلامة ؛ لأن الباطن لا يخالف الظاهر)[٢].

واحذر من مرافقتهم، والنظر في معتقداتهم وتحقيقاتهم، وإن كان فيها حق فهو سراب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء﴾[٣] ؛ وعليك أن تدعو ربك بعدم ميل أو تعلق أو حتى أنس قلبك بطريقتهم :

«وألبس قلبي الوحشة من شرارِ خلقك، وهب لي الأنس بك وبأوليائك وأهل طاعتك ؛ ولا تجعل لفاجرٍ ولا كافرٍ عليَّ منْة، ولا له عندي يداً، ولا بي إليهم حاجة ؛ بل اجعل سكون قلبي وأنس نفسي واستغنائي وكفايتي بك وبخيار خلقك. اللهم صلِّ على محمد وآله، واجعلني لهم قريناً، واجعلني لهم نصيراً»[٤].

(١) سورة الأنعام ـ الآية : (١١٢).
(٢) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٩ ص٢٢.
(٣) سورة النور ـ الآية : (٣٩).
(٤) الصحيفة السجادية ـ الإمام زين العابدين : دعاؤه عند الشدة ص١١٧.

الفصل الخامس:

العقبات التي يطويها السالك في سفره إلى الله ﷻ

السالك: "ما هي العقبات التي يقطعها السالك في سفره إلى الله ﷻ؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (العقبة على ثلاثة أحوال: عقبة الولاية، وعقبة التكليف، وعقبة التوحيد.

فالأولى: يعني التوالي بالأئمة عليهم السلام فك رقبة بهم، وبمعرفتهم تفك الرقاب من النار... فالمراد باقتحام العقبة: موالاة يتيم ذا مقربة، أو مسكين ذا مترية؛ يعني: محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

والثانية: عقبة التكليف؛ وهي على ثلاث عقبات: الأولى: عقبة الطاعة قولاً وفعلاً بموافقة الكتاب والسنة بالإخلاص، وهي رتبة العوام. والثانية: عقبة حفظ الجوارح عن المحارم، واستعمالها في الطاعة بموافقة الكتاب والسنة بالإخلاص، وهي للخواص. والثالثة: عقبة حفظ الباطن من الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية بموافقة الكتاب والسنة بالإخلاص، وهي للخصيصين، وقدمت هاتين العقبتين

لكونهما شرطين للثالثة: وهي عقبة التوحيد، أن تمحو الكثرة ـ فإنها موهومة ـ وأنت تتوجه إلى وحدة بحت، وهي وجهه الذي حيثما تتوجه، وإليه توجهك في حضرتك وغيبتك، ومما ينبغي أن تخرق سفينة نفسك بمنقار الناقور، وتطهرها من صفات الفجور لتخرج من الظلمات إلى النور على يد خضر العقل، وكليم المناجاة، وتقتل غلام شهوتك، وتبني جدار طاعة الله لتستخرج كنز معرفته)[١].

من أجل أن يصل العارف إلى حقيقة التوحيد، ويحوز المحبة الإلهية في قوله: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[٢]، ويعيش في ظلالها، ويجني ثمار كنوز معرفتها؛ عليه أن يرحل ويقتحم عقبات في سفره؛ لأن الطريق هو (للراحل لا للمقيم)[٣]، فلا ﴿يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٤].

(١) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ص١٩٩ ح٦.
(٣) الرسالة البحرانية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٢
(٤) سورة النساء ـ الآية: (٩٥).

ولكن:

بأي كيفية، وبأي آلية يجب على ذلك السالك أن يسير؟

وبأي مصباح يجب عليه أن يستنير؟

أبمصباح الشكوك والظنون والتخيلات والأوهام؛ أم بمصباح الكتاب والسنة والعقل المستنير؟

فبمن يلوذ يا إلهي في طريقه ويتحزم، وبمن يستجير ويستنصر، فهو اليتيمُ الواقف على بابِ لطفك بعد جنايته، وهو اللائذُ القاصدُ العامدُ إليك بعد جرمِ جريرته، فيا «رجاء المؤمنين.. الذي حار في علمه العلماء، وسلّم لحكمه الحكماء، وتواضع لعزته العظماء، وفاق بسعة فضله الكرماء، وساد بعظيم حلمه الحلماء»[1]؛ جد لنا بجودك، وامنن على الفقراء أمثالنا من كرم فضلك.

وأنت إذا أردت القصد فاستمع لكلمات طاوي المقام قدّس سرّه، (موضح الحقيقة والطريقة، ومحيي الشريعة على الحقيقة، الحكيم الرباني والعارف السبحاني... العارف بالله والمقتفي في مطالبه لأولياء الله، والمتخلق بأخلاق الروحانيين، والمتمسك بحبل الله المتين)[2]؛

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص١٥٣ ب٣٢/ أدعية المناجاة ح٢٢.

(٢) أعلام هجر ـ السيد هاشم الشخص: ج١ ص١٨٤. عن الأزهار الأرجية.

فلعمري لقد فتشت في كتبِ من ادّعى الوصال بليلى، ولم أرَ من وصالهم إلا الصد، ومضيعة العمر في طرق وعرة تفوق العد، ولم يسكن خاطري، ويلتذ فؤادي؛ إلا حينما اندمجتُ بمنهاج شريعته في الطريق، الذي وصف عقباته بثلاث هي:

١ـ عقبة الولاية

إذا أردت أن تكون عارفاً، مستكمل الإيمان ماحضهُ محضاً، فاعلم أنه لا يمكنك بحال من الأحوال درك حقيقة ذاته ﷻ، فدع عنك من ادّعى بلوغ الأزل، وشطح بكلمات في كتب هي لم تزل، فإن كلامهم ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[١].

وبما أنه ﷻ أمر بالمعرفة في أحببت؛ اقتضى في الحكمة أن يدلّ عبيدهُ الفقراء على ذلك، ويُعرِّف نفسه لهم؛ فتجلى لهم، ليس بذاته؛ بل بشؤون ظهوراته، ومجلى تجلياته؛ أي: تجلى لهم بهم، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي تجلى لخلقه بخلقه»[٢].

وبما أن قابليتنا كمخلوقات تعجزُ عن مباشرته، ومجاورة أزله،

---

(١) سورة الغاشية ـ الآية: (٧).

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف المرتضى: ص٢٠٠ خطبة رقم(١٠٨).

اصطنع لنفسه خلقاً ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[١] من نور عظمته، ومكنهم من تلقي أنوار فيوضاته، ونقلِها إلى كثرةِ مخلوقاته.

أولهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أهل بيته عليهم السلام. وهم وعاء مشيئته، ومحالّ معرفته، وأول تعينات وتعلقات نور فعله، ولولاهم لما عُرفَ الله عزّ وجلّ وعُبد، كما قال أبو عبد الله عليه السلام: «بنا عُرِفَ الله، وبنا عُبِد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عُبد الله»[٢].

فمعرفته عزّ وجلّ لا تتم إلا بمعرفتهم، وبموالاتهم، وبالتبري من أعدائهم؛ لأنه الكمال لمن طلب الكمال في الإيمان، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه لا يستكمل أحد الإيمان حتى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية، فإذا عرفني بهذه المعرفة فقد امتحن الله قلبه للإيمان، وشرح صدره للإسلام، وصار عارفاً مستبصراً، ومن قصر عن معرفة ذلك فهو شاك ومرتاب.

يا سلمان ويا جندب، قالا: لبيك يا أميرَ المؤمنين.

قال: معرفتي بالنورانية معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة الله عزّ وجلّ معرفتي بالنورانية، وهو الدين الخالص الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

(١) سورة طه ـ الآية: (٤١).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ص٢٦٠ ب٥/ جوامع مناقبهم وفضائلهم عليهم السلام ح٣٨.

اللَّـهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ حُنَفَـاء وَيُقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَيُؤْتُـوا الزَّكَـاةَ وَذَلِـكَ دِيـنُ الْقَيِّمَةِ﴾[1]»[2].

فـالتجئ واعتصـم في سـفرك بهـم عليهم السلام، واعـرف واعـترف بمقامـاتهم النورانيـة الـتي منحهـا الله عزوجل لهـم، وكـن مـن أولئـك الـذين يلهجون بيقين صادق في مناجاتهم:

سادتي «من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عـادى الله، ومـن أحـبكم فقـد أحـب الله، ومـن أبغضـكم فقـد أبغـض الله، ومـن اعتصـم بكـم فقـد اعتصـم بـالله، أنـتم السـبيل الأعظـم، والصـراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشـفعاء دار البقـاء، والرحمـة الموصـولة، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة، والباب المبتلى به الناس»[3].

فهـم المرشـدون الـدالون علـى معرفتـه، وهـم واسـطة الفيوضـات الإلهية، وما من نازلٍ أو صاعدٍ إلا بهم؛ بل ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[4].

---

(١) سورة البينة ـ الآية: (٥).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ص٢ ب/ نادر في معرفتهم عليهم السلام بالنورانية ح١.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ص١٢٩ ب٨/ الزيارة الجامعة... ح٤.

(٤) سورة يس ـ الآية: (١٢).

فالله ﷻ (جعل له باباً لا يؤتى إلا منه ؛ فمن أتى من غيره حجب عنه، وجعل له وجهاً يتوجه إليه ؛ من توجه إلى الوجه فقد توجه إلى الله، ومن أراد أن يتوجه إلى الله بدون الوجه فقد توجه إلى الشيطان ولم يتوجه إلى الله، وباب الله ووجهه هو محمد وأهل بيته ﷺ ؛ فاجعلهم واسطة بين الله وبينك، ووسيلة لك في جميع أقوالك وأذكارك وأحوالك وأعمالك)[1].

٢ـ عقبة التكليف

لا يمكن أن تستيقظ النفس من صدأ الطبيعة إلا إذا تزودت بالطاعة قولاً وفعلاً، من صلواتٍ مفروضة ومندوبة، وأدعية وآداب حسنة، وغيرها ؛ لأنه «لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»[2].

فالتكليف (كما توجه إلى القلب والروح والنفس والفؤاد ؛ كذلك توجه إلى الجسد ؛ من رأسه وعينيه وأذنيه ويديه ورجليه وسائر جسده)[3].

فالتزم بما فرضهُ ربك عليك من تكاليفَ عبادية، ظاهرية أو

(١) رسالة في أنواع العلم "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٩١.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ص٩٦ ب٤٧/ طاعة الله ورسوله وحججه عليهم السلام... ح٣.

(٣) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٢.

باطنية، واجبة أو مندوبة؛ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[1].

وإذا استغرقت نفسك في طاعته تعالى، حتى في حفظ الجوارح عن المحارم؛ لأن ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2]؛ انتقلت من رتبة العوام إلى رتبة الخواص. وإذا حفظت باطنها من دواعي الجهل والمعاصي؛ كالوساوس الشيطانية التي تحول بين العبد وبين طاعة الله وعبادته؛ انتقلت إلى رتبة الخصيصين. وكل ذلك ـ الطاعة وحفظ الجوارح وحفظ الباطن ـ لا بُدّ أن يكون بموافقة الكتاب والسنة، وبإخلاص النية.

وخير سبيل لإصابة ما تنطوي عليه هذه العقبة، هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة. وحق نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله عز وجل. وحق اللسان إكرامه عن الخنا، وتعويده الخير، وترك الفضول التي لا فائدة لها، والبر بالناس، وحسن القول فيهم. وحق السمع تنزيهه عن سماع

(١) سورة الفتح ـ الآية: (٢).
(٢) سورة الإسراء ـ الآية: (٣٦).

الغيبة، وسماع ما لا يحل سماعه. وحق البصر أن تغضه عما لا يحل لك، وتعتبر بالنظر به. وحق يديك أن لا تبسطهما إلى ما لا يحل لك. وحق رجليك أن لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك، فبهما تقف على الصراط، فانظر أن لا تزل بك فتردى في النار. وحق بطنك أن لا تجعله وعاء للحرام، ولا تزيد على الشبع. وحق فرجك عليك أن تحصنه من الزنا، وتحفظه من أن ينظر إليه. وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عزّ وجلّ، وأنت فيها قائم بين يدي الله، فإذا علمت ذلك قمت مقام العبد الذليل الحقير الراغب الراهب الراجي الخائف المستكين المتضرع المعظم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتقبل عليها بقلبك، وتقيمها بحدودها وحقوقها»[1].

٣ـ عقبة التوحيد

فإذا واظبت على الأعمال الصالحة ـ الطاعات ـ، وحفظت جوارحك من المحارم، وباطنك من وساوس الشيطان، بما ورد في الكتاب والسنة بإخلاص نية؛ لأن النية هي روح العمل، وبدأت في سفرك مع زاد نفسك المستطاب؛ تكون قد دخلت في عقبة التوحيد التي لا تصل إلى غايتها إلا بعد طي:

---

(١) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج١٥ ص١٧٣ ب٣/ جملة مما ينبغي القيام به من الحقوق الواجبة.. ح١.

أ ـ مقام توحيد العبادة

وهو أول مقام المسافرين في الطريق، وهو مقام توحيد العبادة، وأهل هذا المقام (يوحدون المعبود وينزهونه ويقدسونه عن النقائص والعيوب، ويقيمون الدليل على ذلك، على ما نطق به ظاهر الكتاب والسنة، ودل عليه الدليل القطعي العقلي الظاهري القشري، ويوحدون معبودهم في مقام الذات والصفات والأفعال والعبادة، ولا يلتفتون إلى حقيقة الأمر، ولا يعرفون كنه التوحيد، وهم العوام من أهل الصورة)[١].

ب ـ مقام توحيد الذات

إذا وفقك اللهُ ﷻ بمنّه، وصبرت في لذةِ طاعته، وابتعدت عن معصيته؛ بلغت مقام توحيد الذات. فبالصبر (يتوقع الفرج، ومن يدمن قرع الباب يلج)[٢].

(وهو المنزل الأول من منازل المسافر، وهم العوام؛ أي: اللب من القشر، أي أهل الصورة المجردة عن المادة العنصرية، وأهل هذه المرتبة يوحدون الحق ﷻ بملاحظتهم في الآفاق والأنفس، وتلاوتهم

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص ١٦.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٨ ص٩٦ ب٦٢/ الصبر والبلاء بعد العسر.

كتاب الله التكويني، فتحصل لهم المعرفة على بصيرة من أمرهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١])[٢].

ومركب هذا المقام هو النظر ـ التفكر ـ في آثار الصنع، بأن (تفرغ نفسك كل يوم وليلة، وتنظر في السموات والأرض، وما فيهما من الخلق؛ بأن تتفكر في صنع الله سبحانه بأي تفكر كان، ولو كان قدر نصف ساعة في كل يوم وليلة، وكلما كثّرت التفكير كان أسرع في الوصول، وأسلم وأبعد من الخطأ، وأقرب إلى الصواب)[٣].

وكيفية التفكر: هو أن تصمت؛ أي: أن تعرض بقلبك عن كل ما سواه قبل التفكر[٤]، وتترك همومك الدنيوية، وتستشعر عظمته في العالم والأشياء وأنت ناظر لها نظرة عبرة واعتبار وتعجب، في كيفية خلقها واختلافها، وتفاوت درجاتها وصفاتها، وأطوارها وأحوالها وحركاتها وسكناتها. فإذا واظبت على تفكرك ـ ولو قدر نصف

(١) سورة فصلت ـ الآية: (٥٣).

(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٧ـ١٨.

(٣) رسالة في ذكر الطريق الموصل إلى الله تعالى "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ الأحسائي: ج٩ ص٤٦.

(٤) حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٣.

ســـاعة يومياً ـ فـتح الله ﷻ عليـك مـن فضـله، وبلغـك كنـوز معرفـة سره[١].

فأهل هذا المقام الناظرين في الآفاق والأنفس (يستدلون على الحق بالخلق)[٢]؛ فنظرهم نظر الكثرة في الآثار.

جـ ـ مقام التوحيد الشهودي

وإذا ما زلت سائراً في سفرك على نحو ما ذكرته كلماته قدس سره، من مواظبة على الأعمال الصالحة فعلاً وقولاً بنية خالصة، والزهد عن رغائب الدنيا الدنية، والنظر والتفكر في العالم والآثار؛ تنتقل من حالة مشاهدة الكثرة إلى مقام ظهور الحق للسالك في القلب، (بحيث ملأ جميع فضاء قلبه، فلا يرى إلا الله، ويرى الأشياء مضمحلة باطلة)[٣]، نعم، (فيه بعض الربط مع الإضافة، كما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «لا يرى نور إلا نورك»، فإن الناظر يرى الغير؛ ولكنه مضمحل في جنب ظهور الحق تعالى ولهذا ينفيه، وإلا لم يكن للنفي فائدة، فافهم)[٤].

(١) كيفية السلوك إلى الله ـ السيد كاظم الرشتي: ص٥٠ـ٥١.
(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢١.
(٣) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢٠.
(٤) مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص١٥١.

فإذا بلغت هذا المقام فهو مقام التوحيد الشهودي، (وأهل هذا المقام أنهم يستدلون على الخلق بالحق، ويقولون: إن الله أجل أن يُعرف بخلقه، بل الخلق يُعرفون به)[١].

د ـ مقام التوحيد الحقيقي

وإذا ما زلت مواظباً على زاد نفسك بالمشروعيات الواردة عنهم عليهم السلام في طريق سفرك ـ في كل ما ورد سابقاً ـ، ونجاك الله من العقبات الكثيرة الحيات والعقارب (الشبهات والظنون)، التي ستظهر لك في المقام الذي قبل هذا المقام؛ لأنها لا تأتي إلا في الرتب المتأخرة من سفر العارف لا في بداية طريقه؛ تنتقل نفسك إلى مقام مشاهدة (الأثر مع قطع النظر عن الأثر وعن مشاهدته، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كشف سبحات الجلال من غير إشارة»)[٢]؛ أي: تنتقل إلى حالة تجريد نفسك من جميع السبحات حتى من الإشارة؛ أي: (تمحو الكثرة ـ فإنها موهومة ـ وأنت تتوجه إلى وحدة بحت)[٣]، أي: تجتهد بأن لا تشغلك كثرة الأشياء عن ملاحظة الوحدة؛ حتى لا تجد

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢١.

(٢) رسالة في جواب الميرزا إبراهيم الشيرازي "جواهر الحكم" ـ السيد كاظم الرشتي: ج١٢ ص١٢٨.

(٣) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢١٠.

إلا الأنموذج الفهواني، والوصف الشفاهي الرباني الذي به تعرف ربك؛ لأنه آيتهُ الدالة عليهِ فيك.

وهو مقام التوحيد الحقيقي، ومقام نظر الوحدة والبساطة والهوية السارية في كل شيء، التي هي (من ظل الوحدة الإلهية الدالة على وحدة الصانع ـ تعالى شأنه ـ)[١]. وبعبارة أخرى: نظرهم إلى وحدة (مطلق الوجود المقيد، من ظاهر ومظاهر وأعراض وجواهر، مما ملأ العمق الأكبر)[٢]، لا الوحدة الواجبة الذاتية؛ لأنه ـ كما قلنا في بداية الكلام في هذا الأمر ـ لا يمكن للسالك ـ ولا لغيره ـ درك الذات البحت بأي حال من الأحوال، فدون ذلك خرط القتاد، وما يدركه هو آية نفسه التي ليس كمثلها شيء، بعد أن جردها عن كل شيء حتى عن الإشارة القلبية؛ فهو مقام الظهور الصرف، والتجلي المحض الذي لا يشوبه شيء من أحوال التقييد، ومقام غاية العارفين ومطلب الطالبين[٣]. وأهل هذا المقام في قلتهم كالكبريت الأحمر، فإذا وجدت أحداً منهم فتمسّك بأذياله عسى أن يفتح الله ﷻ عليك بإرشادهِ وتنبيههِ.

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص٢٥٤.
(٢) الرسالة الرشتية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٨.
(٣) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢٢ـ٢٤.

الفصل السادس:

كيفية تجريد السالك نفسه

السالك: "كيف يجرد السالك نفسه؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (تجريد السبحات أن تلقي عن ذاتك في الاعتبار والوجدان جميع شؤون ذاتك، فلا تنظر إلى حركتك أو سكونك أو نومك أو يقظتك أو ضحكك أو بكائك... وتلقي عنك كل معنى أو صفة أو حال؛ سواء كان اعتباراً أو فرضاً واحتمالاً... حتى لا يبقى إلا محض النفس...

فإذا جردتها في الاعتبار عن كل مماثل وكل مخالف بقي شيء لا يشبهه شيء؛ لأن المشابهة ليست جزءاً لكنهها، فإذا وصلت في تجريدها إلى أن لا يبقى شيء ليس كمثله شيء، فإذا عرفت شيئاً ليس كمثله شيء فقد عرفت ربك؛ لأنه تعالى شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ لأن نفسك حينئذٍ آية الله... الدالة عليه، وصفته التي من عرفها فقد عرف ربه)[1].

---

(١) رسائل الشيخ الأوحد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص١٩ـ٢١.

إن حقيقة الإنسان تتبلور في فؤاده، ووجوده، ونوره الذي هو حقيقته من ربه؛ لا في ماهيته التي هي حقيقته من نفسه؛ لأن كل شيء في حيز الوجود له كنهان: (كنهٌ من ربه الذي هو مادته الأولى، وكنهٌ من نفسه، وهي الظلمة، وهي الصورة؛ أعني: انفعاله وقابليته للوجود؛ وهي المسماة الماهية)[١]، أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وحقيقتك من ربك إذا عرفتها فقد عرفته، كما قال رسول الله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٣]؛ لأنه لما تعذّر معرفة ذاته تعالى، وصف لك نفسه بنفسك.

وذلك الوصف الشفاهي الرباني الذي وصفه لك لتعرفه به هو حقيقتك من ربك، فمن عرف وصف نفسه، أو عرف آيته الدالة عليه

(١) رسائل الشيخ الأوحد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٥.

(٢) سورة الذاريات ـ الآية: (٤٩).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ص٣٥ ب٤٤/ القلب صلاحه وفساده... ح١.

فقد عرفه؛ لأن الصفة تدل على الموصوف، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صفة استدلال عليه لا صفة تكشف عنه»[١].

وأنت إذا أردت معرفته عز وجل عن طريق ذلك الأنموذج الفهواني؛ لابُدّ من صقل مرآة نفسك وجلوها من أدرانها بالطاعة، والزهد، والتخلق بأخلاق الروحانيين، ودوام التفكر في حال الدنيا والموت بإخلاص نية، والتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل لنيل محبته، كما ورد في الحديث القدسي: «ما زال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها»[٢]؛ لأن المطية هي المحبة، والزاد هو الأعمال الصالحة الخالصة له تعالى.

وكيفية تجريد النفس بعد كشف الحجب العرضية المحيطة بها ـ الحجب العقلية، والحجب الروحية، والحجب النفسانية، والحجب الطبيعية، والحجب المثالية، والحجب الجسمانية[٣] ـ :

---

(١) غرر الحكم ـ للآمدي: ص١٣٣.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ص٣٥٢ ك/ الإيمان والكفر ب/من آذى المسلمين واحتقرهم ح٧.

(٣) رسالة في جواب الميرزا جعفر النواب "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٩.

هو (أن تلقي عن ذاتك في الاعتبار والوجدان جميع شؤون ذاتك، فلا تنظر إلى حركتك أو سكونك أو نومك أو يقظتك أو ضحكك أو بكائك... وتلقي عنك كل معنى أو صفة أو حال؛ سواء كان اعتباراً أو فرضاً واحتمالاً)[١]، فإذا وصلت نفسك (في تجردها إلى أن لا يبقى شيء ليس كمثله شيء، فإذا عرفت شيئاً ليس كمثله شيء)، فقد عرفت الوصف الذي وصفه لك لتعرفه به، وهو المِثل الذي ليس كمثله شيء؛ لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٢]، فمن عرف هذا الوصف الذي هو مِثل ليس كمثله شيء، فقد عرف الموصوف؛ لأنه آيته الدالة عليه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٣].

فما يتم تجريده أو كشفه أو محوه هو سبحات نفسك، وما يتم الوصول إليه هو حقيقتك التي هي من ربك، لا حقيقة ذاته تعالى، وهو ذلك الوصف الشفاهي الرباني، فهو المشهود لك كما يقول أمير

(١) رسائل الشيخ الأوحد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص١٩.

(٢) سورة الشورى ـ الآية: (١١).

(٣) سورة فصلت ـ الآية: (٥٣).

المؤمنين عليه السلام: «انتهى المخلوق إلى مثله وألجأه الطلب إلى شكله»[١]، (فالكشف ليس من شيء غيرك، ولا يرشح عليك إلا منك)[٢].

(اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، واجعلنا من الذين عرفوا أنفسهم، وأيقنوا بمستقرهم، فكانت أعمارهم في طاعتك تفنى، وقد نحلت أجسادهم بالحزن وإن لم تبل، وهديت إلى ذكرك وإن لم تبلغ إلى مستراح الهدى)[٣].

(١) الخطبة اليتيمة، محفوظة في المكتبة الوطنية في طهران، ضمن مجموعة رسائل رقم: (٧٤٤ع) ص٢٨٧.
(٢) رسالة في جواب الميرزا جعفر النواب "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٤٠.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ص١٢٨ ب٣٢/ أدعية المناجاة.

الفصل السابع:

ما يكشف للسالك في سفره إلى الله عزوجل

السالك: "ما الذي يُكشف للسالك في سفره إلى الله ﷻ؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (فإذا انقطع عما سوى تدبّر الآية ظهر له بعض ما فيها من الآيات والعنوانات، لأن كل شيء خلقه الله تعالى في تقدير الله، جعله دليلاً ومدلولاً عليه، وشاهداً ومشهوداً، وكتاباً ومكتوباً، وبياناً ومبيّناً، وتابعاً في تقدير الله ومتبوعاً، وعارضاً ومعروضاً، وعلةً ومعلولاً، وأمثال ذلك.

فإذا نظر في الآية متدبراً لها غير ملتفت إلى ما يفهم قبل، ولا إلى قواعد عنده، ولا إلى ما أنست به نفسه من المسائل، فإنه ينفتح له بنسبة إقباله وإخلاصه في إقباله، وما حصل له من الآيات والدلالات، فلا شك في صحّته وقطعيته، وذلك العلم لَدُنّيٌّ)[1].

(١) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٢.

إذا صفت سريرة وعلانية السالك، وأخلص النية في علمه وعمله، وقطع فيافي عقبات سفره مع توجههِ الكامل إلى الوجه الذي أراده الله ﷻ منه؛ فبلغ ﴿أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾[١]؛ آتاه الله ﴿حُكْماً وَعِلْماً﴾[٢] (بسبب التدبر في الآفاق وفي الأنفس. والعلم الناشئ عن ذلك هو العلم اللّدني)[٣].

فما يفاض عليك من الألطاف الإلهية، هو العلم اللّدني الذي ادّخره الله لمن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[٤]؛ حيث قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[٥]، وقال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[٦].

وهو الحكمة التي تظهر من قلبك على لسانك، قال ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً، فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٧].

---

(١) سورة القصص ـ الآية: (١٤).

(٢) سورة القصص ـ الآية: (١٤).

(٣) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٢.

(٤) سورة النازعات ـ الآية: (٤٠).

(٥) سورة البقرة ـ الآية: (٢٨٢).

(٦) سورة الكهف ـ الآية: (٦٥).

(٧) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ص٢٤٩ ب٥٤/ الإخلاص ومعنى قربه تعالى ح٢٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ليس العلم بكثرة التعلم، بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[١].

وما يحصل لك من الآيات والدلالات ـ أو ما يكشف لك ـ؛ (إنما هو عن حقيقة ما أودع الله فيك)[٢] من آية معرفته، وهو اعتبارك منه جلّ جلاله؛ أي: هو وجودك، أو فؤادك؛ لأنه أعلى مشاعر الإنسان، وبه تدرك (المعارف الإلهية المجردة عن الصور والنسب، والأوضاع والإشارات، والجهات والأوقات)[٣]، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس ظلال المحبوب، وآثر المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره واجتنب نواهيه، واختارهما على كل شيء غيرهما، وإذا استقام على بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه؛ وصل إلى روح المناجاة والقرب»[٤].

فأنت إذا نظرت إلى (الأمور كلها بعينه تعالى؛ أي: بالعين التي هي وصف نفسه لك، أعني: وجودك من حيث كونه أثراً ونوراً، وهو

(١) اللمعة البيضاء ـ التبريزي الأنصاري: ص٣٨٠.
(٢) رسالة في جواب الميرزا جعفر النواب "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٤٠.
(٣) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٩.
(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ص٢٣ ب٤٣/ حب الله تبارك وتعالى ورضاه ح٢٢.

حالة معرفتك لنفسك إذا كشفت عنها جميع السبحات من غير إشارة ؛ فإنها حينئذٍ عينٌ من الله سبحانه أعارك إياها لتعرفه بها)[١]، وتصل من خلالها إلى عالم الأنوار، وتشاهد خفايا الأسرار.

فما ينكشف للإنسان هو (ما جمع قلبه ونظره وفكره ولسانه وجوارحه عليه من حق أو باطل)[٢] ؛ فلو استجمع قلبه على الأوهام، واتبع ﴿مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[٣]، حصل له الكشف عما يؤيد ما في قلبه من باطل ؛ وإذا استجمع قلبه على الحق، وعلى ما يريدُ الله ﷻ بما جاء على لسان نبيه وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم ـ ؛ حصل له الكشف عن مراد الله ﷻ، وسقاه من لدنهِ ﴿مَّاء فُرَاتاً﴾[٤].

فما يراه العارف بعد كشف الغطاء والحجاب ليس هو ذات الحق، فدون ذلك خرط القتاد ؛ بل هو (ظهور الله سبحانه له في آثاره وأفعاله وأوامره ونواهيه مغيِّباً لها في ظهوره، بحيث لا يرى سوى ظهوره له، وإليه الإشارة بقول سيد الشهداء عليه السلام : «أيكون لغيرك من

(١) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج١ ص٢١٥.

(٢) شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج١ ص٣٥.

(٣) سورة البقرة ـ الآية : (١٠٢).

(٤) سورة المرسلات ـ الآية : (٢٧).

الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غِبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الإشارة هي التي توصل إليك»[1])[2].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٢٢٥ ب٢/ أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها ح٢.
(٢) رسالة في جواب بعض الأجلاّء "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٧٠ـ٧١.

الفصل الثامن:

كيفية إخبار العارف عن كشفه

السالك: "كيف يخبر العارف عن كشفه؟".

كلمات الشيخ الأوحد قدس سره: (دليل الحكمة: هو الدليل الكشفي العياني، الذي يُخبر به المستدل بعد معاينة ما أراد من معاني ألفاظه... فنقول: دليل الحكمة؛ هو الحكمة العلمية والعملية معاً بشروطهما؛ لأن أحدهما لا يكفي عن الآخر، وإن كان بشروطه. وشروط العلمية: أن يجمع قلبه على استماع المقصود... أن لا تركن نفسه إلى ما أنست به... أن لا يعتمد على مجرد ما عنده من القواعد والضوابط... فإذا ترك العناد والركون والأنس بالمسألة، وعدم الالتفات إلى القواعد، وإنما ينظر فيما يرد عليه من الكتاب والسنة، وفيما أراه الله تعالى من آياته في الآفاق وفي نفسه، بمحض فهمه وذكائه، بحيث يكون متعلماً من الكتاب والسنة وآيات الله سبحانه، قابلاً منها، مصدقاً لها، فيكون تابعاً، ولا يكون مؤولاً للكتاب والسنة وآيات الله سبحانه على ما يُلائم مراده وشهوته، فيكون متبوعاً، وهي تابعة له. أن يكون مخلصاً

لله ﷻ في توحيده وعبادته، بحيث لا يكون له غرض إلا رضا الله سبحانه في كل شيء.

فإذا تمت له شروط العلم وشروط العمل جميعاً على الوجه المطابق للكتاب والسنة؛ حصل له دليل الحكمة، الذي لا يعرف الله إلا به)[1].

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[2]، إذا عدت إلى جوار ربكِ ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[3] بعد قتل غلام شهواتكِ ونزواتكِ، وهداكِ ربك إلى سبلهِ بعد جهادك الأكبر في سفركِ لنيل محبته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وشابهتِ جوهر علتكِ، وشع نور توحيده بمعرفته، وكنتِ أثراً لنور مشيئته، ووجدتِ عذوبة السعادة الأبدية باطلاعكِ على سرّ آيته الذي استودعهُ فيك،

(١) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٩٥ـ١٩٦ـ١٩٧.

(٢) سورة الفجر ـ الآية: (٢٧).

(٣) سورة الفجر ـ الآية: (٢٨).

(٤) سورة العنكبوت ـ الآية: (٦٩).

واستغنيتِ بالشرب من كأس علمه اللّدني عن غيره بعد انقطاعكِ في مناجاتكِ بطلب ذلك منه:

«إلهي علّمني من علمك المخزون، وصنّي بسرك المصون. إلهي حققني بحقايق أهل القرب، واسلك بي مسلك أهل الجذب»[١].

فلتعلمي ـ أيتها النفس ـ بأن إثبات ما يستدل به المُخبر بعد المعاينة بالدليل الكشفي العياني يكون بدليل الحكمة؛ (لأن الكشف الحق ما أُخِذَ من دليل الحكمة بشرائطه)[٢]، فكما أن آلية الوصول كان بدليل الحكمة فكذلك آلية الإثبات تكون به.

أما باقي الأدلة؛ فهي وإن كانت من العلوم النافعة التي تستطيب بها النفس؛ كدليل المجادلة بالتي هي أحسن، وهو البراهين والأقيسة الاصطلاحية التي ذكرها العلماء في كتبهم، الذي يوصل من استعمله إلى عالم المعاني والصور، ودليل الموعظة الحسنة، الذي هو طريق السلامة لمن طلبه؛ إلا أنه لا تحصل بهما المعرفة الحقَّة؛ لأن العارف لا يمكنه النظر إلى الأشياء بصورة مجردة عن كل ما سواها إلا بدليل

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٢٢٦ أبواب/ ما يتعلق بشهر ذي الحجة... ب٢/ أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها ح٢.

(٢) شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٥.

الحكمة، وتلك العلوم غايتها تكون في الفروع، وفي تهذيب الأخلاق إذا أُدركت بمستندها وشروطها[١].

وأنت أيها السالك الطالب القرب منه ﷻ، إذا طلبت معرفته ومعرفة الأشياء على ما هي عليه؛ أي: معرفتها مجردة عن كل شيء سوى محض ذاتها، فعليك بالعلم والعمل بدليل الحكمة؛ لأنه لا يغنيك تحصيل أحدهما عن الآخر، بل لا وصول لغايتك إلا بهما معاً، وبه ـ أي: بدليل الحكمة ـ يمكنك الاستدلال على ما ظهر لك من الآيات والعنوانات.

وشروط دليل الحكمة العلمية ـ كما وصفها طاوي المقام في كلماته ـ ثلاثة هي:

١ـ جمع القلب على استماع المقصود من دون رد أو عناد؛ لأنك لو اشتغلت بهما غاب عنك ما أنت بصدده بسبب تفرق قلبك؛ فلا تحصل على مرادك.

٢ـ وعدم التفات نفسك إلى ما أنست به؛ لأن من شب على شيء شاب عليه وأعماه وأصمه وصعب عليه مفارقته.

٣ـ وأن لا تعتمد على القواعد والضوابط التي هي عندك فقط.

---

(١) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص ٢٢٣.

فإذا انشغلت بما ورد عليك بالنظر في الكتاب والسنة، وفيما أراك الله ﷻ إياه في الآيات وفي نفسك، بحيث تكون تابعاً لهما لا مؤولاً، مع أخذ النظر في تلك الشروط الثلاثة؛ تحقق دليل الحكمة العلمية عندك.

وأما دليل الحكمة العملية: فهو إخلاص العمل في طاعة الله ﷻ ـ على نحو ما ذكرنا سابقاً ـ، والتقرب إليه بما ورد في الكتاب والسنة بإخلاص نية.

ومنشأ هذا الدليل هو الفؤاد، أو جهة اعتبارك من ربك؛ (لأنه هو الذي يدرك الشيء مجرداً عن جميع ما سوى محض وجود الشيء)[١]، أما مستنده فهو المحكم من الكتاب والسنة؛ لأنهما أصلٌ(لاستنباط ذلك الدليل)[٢].

(فبهذا الاستدلال الذي هو من دليل الحكمة؛ يكون سبحانه عند العارف أظهر من كل شيء، كما قال سيد الشهداء عليه السلام: «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك»[٣]، وتحصل به المعرفة الحقَّة، ولا تحصل بغيره أصلاً)[٤].

---

(١) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٨.
(٢) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٨.
(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٤ ص١٤٢ أبواب/ الإيمان، والإسلام... ب٤/فطرة الله سبحانه وصبغته.
(٤) شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٦.

«اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، واجعلنا من الذين فتقت لهم رتق عظيم غواشي جفون حدق عيون القلوب، حتى نظروا إلى تدبير حكمتك وشواهد حجج بيناتك، فعرفوك بمحصول فطن القلوب وأنت في غوامض سترات حجب القلوب، فسبحانك أي عين تقوم بها نصب نورك، أم ترقأ إلى نور ضياء قدسك، أو أي فهم يفهم ما دون ذلك إلا الأبصار التي كشفت عنها حجب العمية، فرقت أرواحهم على أجنحة الملائكة، فسماهم أهل الملكوت زواراً، وأسماهم أهل الجبروت عماراً، فترددوا في مصاف المسبحين، وتعلقوا بحجاب القدرة، وناجوا ربهم عند كل شهوة، فحرقت قلوبهم حجب النور حتى نظروا بعين القلوب إلى عز الجلال في عظم الملكوت، فرجعت القلوب إلى الصدور على النيات بمعرفة توحيدك، فلا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تعاليت عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[1].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ب٣٢/ أدعية المناجاة ص١٢٨.

خاتمة الكتاب

كل كلمة تناولتها في هذا الكتاب الصغير زرعت بذرة في داخلي، تنمو وتنمو، وما زالت تنمو حتى الآن؛ وإنه يجب عليّ أن أتعامل مع نموها عاجلاً أو آجلاً.

لماذا؟

لأنّي لم أعتقد منذ الفترة الأولى بأن كلماته ﷺ سوف تخلق لي شعور حياة جديدة، وطور ولادة إحساس بدأ مخاضه منذ أول كلمة.

فعلى الرغم من أنّي إنسانٌ انتقائيٌّ جداً في جانب اختيار الكلمات؛ إلا أنني لم أحاول عصف ذهني، أو الإفراط في جانب إيقاع الوصف وتشخيص المادة المبحوثة؛ لأنيّ كلما حاولت فهم كلماته ﷺ أدهشتني، وخلقت لي خيط فكرة قد أحتاج لوقت طويل لاكتشاف سبر أغوارها ـ فأنا أمام مادة غنية يجب عليّ أن أتعامل معها باحترام يليق بعمقها ـ، فلم يكن مني إلا أن أجعل الشخوص تتشكل مما أشعره ـ أتذوقه ـ في كل قطرة ترشح عليّ منها.

وأخيراً، يمكنني أن أقول ـ وبصراحة ـ:

إن كـان هـذا السـفر العرفـاني القصـير في ربـوع كلمـات الشـيخ الأوحد، الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره قد أثار ولـو همسـة في فؤادك؛ فهو قد أضاف طبقة أخرى فوق فؤاد غيرك.

وإن كانـت هـذه نهايـة الكلمـات الـتي سـتقرؤها في سـطور هـذا السفر، فإنها مجرد البداية للبعض فيه.

المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أعـلام هجـر من الماضـين والمعاصـرين ـ السيد هاشـم الشـخص: قم ـ مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ.

٣ـ إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ تحقيق/ الدكتور حسين محفوظ: بغداد ١٣٧٦هـ.

٤ـ إقبال الأعمال ـ رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٥ـ إعلام الورى بأعلام الهدى ـ الشيخ الطبرسي: قم ـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٧هـ.

٦ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ الشيخ محمد باقر المجلسي: بيروت ـ دار إحياء التراث، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٧ـ تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي ـ تحقيق وتعليق/ الشيخ عبدالمنعم العمران: بيروت ـ دار المحجة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٨ـ تراث الشيخ الأوحد ـ الشيخ أحمد الأحسائي ـ تقديم/ الشيخ توفيق البوعلي: مؤسسة الإحقاقي ـ الأميرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٩ـ حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي.

١٠ـ الحدائق الناضرة ـ المحقق البحراني: مؤسسة النشر الإسلامي.

١١ـ رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت ـ الدار العالمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٢ـ روضات الجنات ـ الميرزا محمد باقر الخوانساري: إيران ١٣٠٦هـ.

١٣ـ سيرة الشيخ أحمد الأحسائي ـ تحقيق/ د. حسين محفوظ: بغداد ـ دار المعارف ١٩٥٧م.

١٤ـ شجرة طوبى ـ الشيخ محمد مهدي الحائري: النجف ـ منشورات المكتبة الحيدرية، الطبعة الخامسة ١٣٨٥هـ.

١٥ـ شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت ـ مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

١٦ـ شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: كرمان ـ مطبعة السعادة، الطبعة الأولى.

١٧ـ شرح العرشية ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

١٨ـ شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

١٩ـ الشفاء الإلهي في مجربات الأحسائي ـ إعداد وجمع/ علي خليل الحداد الكوفي: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.

٢٠ـ الصحيفة السجادية ـ الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.

٢١ـ عوالي اللئالي ـ الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي جمهور الأحسائي: قم المقدسة ـ دار سيد الشهداء عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٢ـ غرر الحكم ودرر الكلم ـ الشيخ عبدالواحد الآمدي ـ تصحيح/ حسين الأعلمي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢٣ـ كيفية السلوك إلى الله ـ السيد كاظم الرشتي: بيروت ـ مؤسسة الإحقاقي للتحقيق والطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.

٢٤ـ الكافي ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني: بيروت ـ دار الأضواء ١٤٠٥هـ.

٢٥ـ اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء عليها السلام ـ المولى محمد علي بن أحمد القراجه داغي التبريزي الأنصاري: إيران ـ مؤسسة الهادي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٢٦ـ مناقب آل أبي طالب ـ ابن شهر آشوب: النجف ـ المطبعة الحيدرية، ١٣٧٦هـ.

٢٧ـ نهج البلاغة ـ الشريف المرتضى: قم المقدسة ـ دار الأسوة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٨ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ـ الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي: قم المقدسة ـ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

الفهرس

إهداء ٥
مقدمة الشيخ عبد المنعم العمران ٧
مقدمة المؤلف ١٩
تمهيد الكتاب ٢٧

الفصل الأول: تهيئة كل النفس قبل السفر إلى الله ﷻ ٣٩

الفصل الثاني: زاد السالك في سفره إلى الله ﷻ..... ٤٩

١ ـ طيب المآكل ٥٤
٢ ـ طيب الملابس ٥٨
٣ ـ طيب المناكح ٦٢

الفصل الثالث: مراقبة النفس في أحوالها وأفعالها وأقوالها ٦٧

الفصل الرابع: مُرشد السالك في سفره إلى الله ﷻ ٧٩

الفصل الخامس: العقبات التي يطويها السالك في سفره إلى الله ﷻ ٨٩

١ ـ عقبة الولاية ٩٤
٢ ـ عقبة التكليف ٩٧
٣ ـ عقبة التوحيد ٩٩
أ ـ مقام توحيد العبادة ١٠٠
ب ـ مقام توحيد الذات ١٠٠
جـ ـ مقام التوحيد الشهودي ١٠٢
د ـ مقام التوحيد الحقيقي ١٠٣
الفصل السادس: كيفية تجريد السالك نفسه..... ١٠٥
الفصل السابع: ما يكشف للسالك في سفره إلى الله ﷻ..... ١١٣
الفصل الثامن: كيفية إخبار العارف عن كشفه ١٢١

خاتمة الكتاب ١٢٩
المصادر والمراجع ١٣٣
الفهرس ١٣٧